#26

ماكسنس فرمين

النحّال

6/10/2018

رواية

ترجمة

أيف كادوري- حازم عبيدو



ماكسنس فرمين

النحّـــــال

ترجمها عن الفرنسية

أيف كادوري- حازم عبيدو



النحّـــال



Author: **Maxence Fermine**

Title: **L' Apiculteur**

Translator: **Ève Cadoret - Hazem Obedo**

cover designed by: **Majed Al-Majedy**

P.C.: **Al-Mada**

First Edition: **2016**

المؤلف: ماكسنس فرمين

عنوان الكتاب: النحـــّال

ترجمة: أيف كادوري- حازم عبيدو

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدى

الطبعة الاولى: 2016



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس-محلة 102-شارع 13-بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102-13 Street-Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول

info@daralmada.com

+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

الإهداء:

إلى جدّي ديدييه فرمين،

النحّال.

«من العبث أن نطالب الحياة بأكثر من هذا التناغم السرّي الذي يربطنا إلى لغز الآخرين الكبير، ولو بشكل عابر، ويسمح لنا أن نجتاز بصحبتهم جزءاً من الطريق.»

"ألفارو موتيس"



الفصل الأوّل

لشدّة ولعه بالذهب أصبح أورليان روشفير نحّالاً. لم يكن يطمع بجمع الثروات، ولا كان جني العسل يمنحه أيّة فرصَة للثراء، غير أنّه، بكلّ ما يفعله، كان يبحث عَمّا يسميّه بفرادةِ ذهب الحياة.

كان يسعى إلى الجمال. فلم تكن الحياة بالنسبة له تستحق أن تُعاش لولا بضع لحظات تعبرها من السّحر المصفّى.

بلغ أورليان سنة ١٨٨٥ عامه العشرين وبدأ يحلم بالنحل. كان لديه مشروع في إنشاء نحو عشرة قفران لإنتاج العسل. كان يعلم أنّه سيصبح النحّال الوحيد في لانغلاد، والعسل الذي سوف يبيعه سيكون الأجود في بروفانس كلّها.

وكان هذا المشروع يكفي، رغم غرابته، ليُحوّل حياته إلى حلم.

كانت الحياة، بالنسبة لأورليان، نحلةً غريبةً من الذّهب تلمع من بعيد، تطير منتشيّة، وهي تتنقّل من عطر إلى عطر، تصطدم بزجاج الشمس، وتبحث في سعة السماء عن رحيق زهرتها الخاص.

في الحقيقة، كان لدى أورليان روشفير شغف بالذّهب منذ مطلعه.

ويعود ذلك لأنّه ولد في لوحة هائلة من شمس وضوء. لوحة تدعى بروفانس.

وأيضاً لأنه كان باحثاً عن الذّهب.

كان أورليان يعلم أنّه لكثرة بحثه عن الذهب، سيظلّ على الأرجح، طوال حياته، يفتقده. لكنّ حدساً كان يتملّكه، بأنّ وجوده لن يكون إلا مزيجاً من الحرّيّة والسعادة.

في أحد الأيام، حينما كان طفلاً، حطّت على يده نحلة محمّلة بغبار الطلع، ولمّا طارت، بقي مسحوق الذّهب على راحة كفّه متقاطعاً مع خطّ حياته.

منذ ذلك اليوم، حلم بالعسل واختار أن يصبح نحّالاً.

كان نبت الخزامى هو الثروة في لانغلاد. وكان ليوبولد روشفير، جدّ أورليان، يدرك ذلك جيداً، هو الذي كان أكبر منتج له في المنطقة.

كان الرجلان يقطنان وحدهما ضمن مزرعةً في بيت له لون أمغر ومصاريع زرقاء، يزرعان أرضاً بنفسجيّة حيث تحوم آلاف الحشرات تحت شمس لاهبة.

بالنسبة لليوبولد، كان الذّهب، هو زرقة الخزامى. أما لأورليان، فصفرة العسل.

– لكلٍّ لونه، كرر كلوفيس مراراً، صاحب مقهى القرية المسمّى (الحانة الخضراء)، الذي اختار بدوره اللون الذي يخصّه يوم أذاب أولى حسرات الحبّ في كأس أبسانت.

مقارنةً بأبسنتين كلوفيس وخزامى ليوبولد، لم يكن العسل، رغم لونه وغلاء ثمنه، يساوي الشيء الكثير. هذا ما كرّره العجوز مراراً أمام حفيده:

– أتعلم، أورليان، لن تفضي بك تربية النحل أبداً إلى أماكن بعيدة. والأهمّ أنّها لن تكفي لإعالتك.

أجابه أورليان على الفور:

– إنّك مخطئ. العسل هو حياتي.

في اليوم الثاني، دخل إلى مكتبة قديمة في آرل، على مقربةً من الأليسكان، وخرج منها حاملاً أطروحةً حول تربية النحل.

كان يوزّع وقته أثناء الشتاء بين ترميم بيت المزرعة، وتصنيع قفران من فروع الصفصاف، وقراءة كتاب (مشاهد من حياة النحل الغامضة) بجانب الموقد.

حين كان أورليان يتكلّم عن النحل، في ذلك الشتاء، كانت عيناه غالباً ما تبرقان بلمعان شفيف مرهف، يشي بشيء من الجنون.

ورغم أنّ ليوبولد لم يكن ثرثاراً، إلّا أنّه اعترف بذلك إلى صديقه كلوفيس في مساء أحد الأيام، بعد أن شرب كأساً إضافياً من الأبسانت. حيث كان العجوز يتذوّق بتلذّذ اللحظة المباركة التي تذوب فيها خُلاصة الأفكار ببطء في كحول الأحلام، متكئاً على منضدة (الحانة الخضراء).

– منذ أن بدأ أورليان، يعلن عن رغبته في مزاولة تربية النحل، وثمّة ما يخيفني في نظرته.

– وما هو برأيك، هذا الذي في عينيه؟ سأل كلوفيس.

– لا أعرف. لكنه يلتمع بألف نار. كأنّه قد أوقد كل نجوم عينيه.

– نجوم في العينين؟

– بلى. يكلّمك عن النحل، وهو ينظر إليك ولا يراك، رغم أنّه هنا وأمامك بالفعل، لكن كأنّه يرى خلال جسدك. ببساطة يرى أبعد مما يُرى. و يلتمع شيء في عينيه أشبه ببروق صغيرة.

– إذن، أجابه كلوفيس، دعه يلعب دور النحّال إذا كان هذا ما يريده، فلابدّ أنّ هذه بروقُ حلم.

في بداية سنة ١٨٨٦ بدأ أورليان نشاطه الجديد بشكل متواضع. فاكتفى في الموسم الأوّل بما يقارب عشرة قفران. وهذا ما يسمّى بالتربية اليدويّة والسهلة للنحل.

– العسل شمس يمكن تربيتها، كان يردّد ذلك لمن يودّ السماع. ولتحصل على شمس جيّدة، يلزمك وقت.

في الربيع، عثر في الغابة على حشد من النحل ملتصق بملكته. أسلَم الحشد نفسه بسهولة. وضعه أورليان في القفير وسارع إلى تغذيته بماء حلو. فقد حصل على أوّل كنز له. وبعد بضعة أيّام، اشترى سبعة أفراخ أخرى من مستثمر في مدينة مانُسك.

– إنّه أجود نحل في بروفانس! أكّد له الرجل. أتت من هضبة فالنسول!

كان لدى أورليان في أثناء زيارته الأولى، ما يكفي من الحذر لوضع شباك بين هيكل القفير الخاص بتأسيس عشّ الحَضنة، وأطر الصناديق التي يُجنى منها العسل.

في أوّل إزهار، حلّقت أعداد هائلة من النحل وراحت تجني أزهار الحقول دون كلل. بالنسبة لأورليان، كان المشهد مذهلاً، مراقبتها وهي تطير من وردة لأخرى، من شروق الشمس إلى مغربها، بدوّامات باليه راقصة. مكث على هذه الحال لساعات طويلة مفتوناً بهذا الخيمياء الذي يُحيلُ رحيق الأزهار إلى عسل ذهبيّ.

قطف في الصيف موسمه الأوّل. سحب أطرَ الصناديق واحداً تلو الآخر، مزوداً بمدخنة، كشف أقراص الشهد وسحب منها العسل الذي أخذ يسيل في جرّة كبيرة مثل ذهب ذائب. وهكذا أصبح يملك كميّة وافرة من العسل.

وفي مساء من أيّام أيلول، باع نتاجه إلى بائع مفرّق من آرل، ما عدا ثلاثة مرطبانات تركها لاستخدامه الشخصيّ، وثلاثة أخرى أهداها إلى بولين.

كانت بولين أجمل بائعة خزامى في المنطقة. وهي ابنة أخ كلوفيس أيضاً. كان لها جسد ساحر، وفي عينيها ما يشبه شَركاً للحبّ. شركاً يجتذب قلوب الرجال فتهوي إليه.

ذات صباح، وبينما هي عائدة من سوق آرل، حيث باعت زيت خزامها، صدفت أورليان قرب نافورة القرية وسألته:

– حسناً، وماذا ستفعل الآن أيّها النحّال، بعد أن انتهى الجني؟

نظر أورليان إليها مطوّلاً قبل أن يجيب:

– انتظر قدوم الشتاء لأصنّع قِفران أخرى.

كان الشتاء، هو الأكثر مشقّة على أورليان. لم يكن لديه ما يقوم به غير انتظار الربيع القادم ببطء الجليد. أصبحت الحياة غائبة، والنحل ينام محميّاً جيّداً داخل قفرانه، ولكن ما إن يظهر شعاع للشمس، حتى يخرج ليتدفأ. وإذا ما لامست نحلة الثلج، قضي عليها إلى الأبد.

كل شيء كان أبيض بضراوة. لقد اختفت الزهور والثمار، والأوراق تساقطت عند أوّل صقيع، الفطر ينام تحت الثلج، ومن فرط ما كانت الشمس شاحبةً بدت بيضاء، وعلى قدر ما كان قلب أورليان بارداً بدا ميتاً.

بعد أن انتهى من تجهيز مجموعة جديدة من القفران، لزم الأمر خداع الضجر. فكان أورليان يقوم بجولات طويلة في الغابات المغطّاة بالثلج. لم يكن يعود إلا حين تختفي الشمس وراء الجبال، فيشعل النار في الموقد ويبدأ بقراءة مؤلّفات تربية النحل.

حين كان يراقب قفرانه، كان يشعر أنّ هذه الحشرات قد نجحت حيث فشل الإنسان. متلاصقة ببعضها، بهذه الطريقة كان النحل يحافظ على درجة حرارة ثابتة. كانت تعمل معاً لأجل مجتمعها. وفهم أنّ الإنسان، في تطوره البطيء، مافتئ يبتعد أكثر فأكثر عن الفردوس. وبدأ أورليان يحلم بأن يصبح نحلة.

بإمكان النحل أن يموتَ من الحبّ كُرمَى لزهرة.

بإمكان النحل أن يموتَ من الحبّ.

بإمكان النحل.

في الحقيقة لا نعلم شيئاً عن إمكانيّة النحل.

في صباح أحد أيّام كانون الثاني، وجد أورليان نحلةً ميتةً في الثلج. ترتدي الذهبيّ والأسود، جوهرة حقيقيّة من نار في بحر من بياض. حملها برقّة بين السبابة والإبهام ووضعها على راحته.

ما إن لامست جلده حتى انكسرت النحلة المتجمّدة، مثل الزجاج.

حين بسطَ كفّه وقَلبَه نحو الأرض، رأى بحزن مسحوق الذّهب يلمع في الهواء ويتلاشى على الثلج.

في الموسم التالي، حلّ الربيع متأخراً، بقيت قفران النحل وطلائع الزهر تحت غطاء سميك من الثلج.

أخيراً، وبأوائل الأيّام الجميلة حدثت عمليّة الإفراق[1].

ذات صباح من شهر أيّار، طارت الملكة العجوز التي تخصّ القفير الأوّل، ساحبةً معها جزءاً من الطائفة التي أصبح عددها كبيراً جداً للعيش تحت سقف واحد. طار الحشد للحظات، ثمّ تعلّق على غصن شجرة كرز. تمكّن أورليان من التقاطه بسهولة.

في القفير الأوّل، والذي أصبح يتيماً، بدأ النحل بصنع بيوت الملكات. وبعد ستّة عشر يوماً أطلّت ملكة جديدة من مقبسها وعادت الحياة إلى القفير الأوّل. كانت مهمّتها الأولى، هي التخلص بلا رحمة من كل عذارى النحل الملكيّة، لتكون واحدة فقط هي من تحكم وتُخصّب. وفي النهاية، محاطةً بحاشية مملكتها التي لم تكفّ عن تغذيتها، تعود إلى القفير وتمضي بقيّة حياتها وهي تبيض. على هذا النحو ملك النحّال ما يقارب العشرين قفيراً فعّالاً، مما سمح له أن يضاعف إنتاجه من العسل. كان فخوراً بقفيره الأوّل، الذي وفّر له تلك السنة، نحو أربعين كيلو من العسل.

---

١ – أي عملية التطريد الطبيعي وهي غريزة التكاثر الطبيعية عند النحل، وهي أيضا وسيلة لزيادة عدد الطوائف في المنحلة.

كلوفيس الذي أتى ليهنّئه على قطافه الثاني، وجد نفسه تحت وطأة تفسيرات معلّم النحل الجديد حول هذه الواقعة الاستثنائيّة.

– تبيض الملكة بشكل متوسط ألف بيضة في اليوم. إلا أنّ ملكة القفير الأوّل، المولودة حديثاً، بإمكانها أن تَبيض حتى ألفي بيضة. وتحكم أربعين ألفاً من العاملات.

غير أن كلوفيس، الذي لم يكن يفهم شيئاً من هذه الحسابات التقنيّة، صرخ، حين رأى كل هذه المطربانات من العسل:

– كأنها تمطر ذهباً!

– بلى. الذّهب الذي كنت أفتش عنه.

– وليوبولد؟ ما هو رأيه؟

لم يجب أورليان على الفور. اكتفى بأن أخفض رأسه وهو يتأمّل نحلة تحوم حوله.

– يقول إنّ ذلك لن يجدي، وإنّي لن أتمكّن من العيش من تربية النحل. يقول: إن هذا جنون.

– قد يكون محقّاً.

– رغم ذلك، أعرف أنّي خلقت من أجله. من أجل البحث عن الذّهب. حتى لو أنّه اليوم، ليس إلا عسلاً.

– ربّما في نهاية المطاف، تكون أنت المحقّ.

– ليس بإمكاننا التحقّق من شيء. لكنّ الأمر يستحقّ المحاولة.

– بلى، أورليان، قال كلوفيس وهو يحكّ رأسه، ربما يستحقّ الأمر العناء.

في أحد الأيّام وهو يزور منحلته، اقترف النحّال خطأً كان يمكن، لو لم يكن لديه قليل من الحظّ والكثير من البداهة، أن يغيّر مجرى الأحداث وينهي مشروعه بكارثة. ففيما كان يعيد وضع صندوق فوق قفير، اصطدم كوعه بقفير آخر فأوقع إطاراً يضمّ مئات النحلات. على الفور، وبهدير يصمّ الأذنين، هاجمه النحل من كل الجهات. منذ الوخزة الأولى شعر أورليان بألم حارق في زنده. بدأ الركض على أمل الإفلات من الحشد الهائج، إلّا أنّ النحل وصل إليه دون عناء. عشرات اللسعات حرقت جسده بأكمله، ولولا وجود ساقية صغيرة ارتمى بها، لكان قد فقد حياته دون أدنى شكّ.

صرخ ليوبولد حين رآه عائداً إلى البيت، مترنّحاً، متورّم الوجه:

- ما الذي حدث لك؟

لم يتمكّن أورليان إلّا من تلفّظ:

- النحل!

وأغمي عليه بين يديّ جدّه.

حمله ليوبولد إلى غرفته، ومدّده على السرير، بمنأى عن الشمس، ووضع كمّادات مبلّلة على جبينه. وبعد أن نزع عشرات الإبر، صنع مُستخلصاً من مغليّ الأعشاب البريّة ووضعه على أماكن التورّم. ثم لقّم المريض عدّة ملاعق من العِكبر.

أتت بولين في مساء اليوم ذاته لتسهر عند سريره، وجدت صعوبة في التعرّف عليه من شدّة التشوّه. أخذت يده و لم تفلتها طوال الليل.

- لا تمت، همست. لا تمت...

أراد أورليان أن يفتح عينيه لينظر إليها، غير أنّ جفنيه المتفخين بسبب اللسعات ما كانتا لتسمحان له أن يلمح أكثر من شعاع ضياء الشمعة فوق المنضدة. أخذ يئنّ، وتلفّظ بثلاث كلمات لبولين لم تفهمها، وغفا.

بقي يهذي على هذه الحالة لليلتين، مأخوذاً بالحمّى والألم. لكنّه لم يمت.

حين استيقظ، في صباح اليوم الثالث، كانت الشمس مرتفعةً في السماء، وبدا الارتياح على ليوبولد وبولين، لقد فهما أنّه نجا.

- ما الذي حدث لي؟ سأل النحّال، مع ضيق في التنفس.

- إنّه النحل، قال ليوبولد.

ابتسمت له بولين، سعيدةً أن تراه قد استردّ وعيه، وتمكّن أخيراً من فتح عينيه إلى حدّ كبير والنظر إليها. أخبروه بما حدث، وكيف نجا من الموت.

- لا ذنب للنحل، قال. كان خطئي.

نهض، تناول كأساً من الحليب، وبلع عدّة شرائح من الخبز مدهونةً بالعسل، وأخذ آخر ملعقة من العكبر وعاد إلى منحلته.

من اليوم فصاعداً، أصبح أورليان محصناً ضد السمّ، ولن يعاني بعد الآن أبداً من لسع نحلة، أو نصوح، أو زنبور.

من جهة أخرى، كان يبدو على هذا الرجل، أنّه ليس لديه أيّ ميل للألم.

ما هو العِكبر؟ سألته بولين في وقت لاحق.

– هو الذي أنقذني، أجاب النحّال. تعالي أُرِكِ شيئاً.

أمسك الفتاة من يدها وأخذها إلى القفران. أراها كريّات الراتنج الصغيرة تسدّ ثغرات القفير، تحسباً لسوء الأوضاع الجويّة القادمة.

– هذا هو العِكبر! ميزته أنّه يلأمُ الجروح ويعالج العديد من الآفات. ويقال أيضاً أنّ ستراديفاريوس كان يطلي به كمنجاته، ويعود له الفضل في الحصول على رنين منغّم.

– إذن، سألت بولين، مندهشةً من أنّ المادة نفسها تستخدم للكمنجات وللجروح: يلأمُ جروح الجسد والروح في آن معاً؟

– بلى، يصنع المعجزات، بشتّى الأحوال!

ليس العكبر والعسل منتجاتِ النحل الوحيدة التي لها ميزات شفائيّة. هناك غذاء الملكات على الأخصّ: الهلام الملكيّ.

كان أورليان يكرّر عادةً:

– أشعر أنّني إذا تغذيت طوال حياتي على الهلام الملكيّ فقط، سأصبح خالداً.

بولين التي لم تكن تصدّق، كانت تجيبه:

– وإذا أكلت منه أنا، ماذا سيحدث؟

– بعد ستّة عشر يوماً، تصبحين ملكة.

عند القطاف الثالث، أعاد أورليان العمليات ذاتها التي أجراها في العامين الماضيين، دون أن يُضعفَ أياً من طوائف منحلته، فصار يملك بعد مدّة وجيزة ما يقرب من مئة خليّةٍ فعّالةٍ.

مرّت سنة ١٨٨٨ مخيفةً. فأتى الصقيع في نيسان، وتساقط وابل من البَرَد في أيّار ثمّ موجة جفاف في تمّوز، الأمر الذي تسبّب بأضرار فادحة وأجهز على العديد من المواسم. تضاعف ثمن الذرة مرّتين، والقمح ثلاث مرّات، أمّا بالنسبة لثمن عسل الخزامى، فتضاعف عشر مرّات. وبمصادفة غريبة، كانت قرية لنغلاد معفاة نسبياً من الأجواء السيئة، ولم يكنْ يحقّ لأحد أن يشكو من أحوال الطقس في ذلك العام على الخصوص.

حين عاد أورليان من آرل، وبعد أن أجرى حساباته، جمعاً وطرحاً، رأى أنه بقي لديه الكثير من المال. صرخ النحّال:

– ثروة صغيرة!

أعاد ليوبولد حساب المال، لم تصدّق عينيه. وعندما اقتنع أخيراً، التفت إلى حفيده، وقد اكتسى وجهه بابتسامة واسعة، وقال:

– أعتقد أنّي أخطأت، في النهاية، كنتَ أنت على صواب، العسل، هو ذهب بالفعل!

ثم أضاف مصطنعاً عدم الاكتراث:

- في حال تزوّجتَ الآن، سوف يكون لدينا من مال الخزامى والعسل، ما يكفي لإقامة حفل زفاف مهيب!

كان العجوز يفكّر ببولين، وكان أورليان يعلم ذلك جيداً. لكنّ هذا الأخير أجاب بحزن:

- حفلات الزفاف تكون أجمل في الصيف. والصيف طار مع أريج الزهر. وأنا أحتاج هذا المال لأشتري معدّات، وأصنّع قفران جديدة وأضاعف استثماري، وحين أنهي ما بدأته، ربّما أفكّر في الزواج. ولكن حتى ذلك الوقت، سأمنحُ حبّي للنحل.

كان يجول في خاطر بولين أنّ أورليان نحلة يلزمها التنقّل بين زهور الحقل قبل أن تجد الزهرة التي ستمنحها الرحيق الأروع مذاقاً.

كانت تعلم أيضاً بنداء السفر والذّهب، بوخز إبر الشمس وعطر الأماكن المجهولة.

كان لديها الصبر على الانتظار.

كانت تعلم أنّ النحلة تعود دائماً إلى قفيرها.

كان يبدو أنّ حلم النحّال ينمو ويتشكّل تدريجياً.

في اليوم الثاني بعد عودته من آرل، وبعد أن أخفى ماله تحت حجر منتزع من زاوية المشغل، خرج أورليان لاصطياد الفراشات. من النماذج التي جلبها، كانت تلك المسمّاة (ليمونة بروفانس) هي المفضّلة لديه ، فراشة لشدّة صفرتها كان من الممكن أن تخطئ بينها وبين الحوذان البريّ[٢]، تبدو في اليد أشبه برشقة شمس.

كان أورليان يخرج في الخريف، ليقطف الفطر من جبل فوق لانغلاد.

وفي إحدى الصباحات، بعد مطر غزير استمرّ طوال النهار والليل، اكتشف سجّادة من الفطر بقبّعات صفراء ذهبيّة ضمن فسحة مشكوكة بالتوت البريّ. فعبّأ منه سلّة كاملةً.

عند المساء، وفيما كان ينظّف الفطر على طاولة المطبخ، والنار تطقطق في الموقد، فكّر بتلذّذ بالحياة التي يعيشها ورأى أنّه سعيد، بحبور شفاف ومضيء.

---

٢ les boutons–d'or: زهر الحوذان والذي يدعى في فرنسا أزرار الذهب.

في اليوم التالي لتلك السهرة الهانئة خسر النحّال كلّ ثروته.

حين استيقظ، في وقت متأخر من الصباح، تثاءب مطولاً وكان لديه صعوبة بالغة في النهوض من السرير، شرب قهوته وهو يرنو من نافذة المطبخ. حيث تهتاج أعطاف الشجر بريح عاتية. وارتفعت حرارة الطقس بغرابة عن الأمس.

– الفون[٣]! صرخ أورليان. الريح التي تؤدي للجنون!

كانت العاصفة تقترب. التمع البرق في السماء، وبدأت ترعد بعنف لم يسبق له مثيل. سمع أورليان صوت ليوبولد يصرخ في الخارج:

– حريق! حريق! وقعت الصاعقة على السنديانة!

ركض إلى الفناء ورأى عند آخر الحديقة، على مقربة من الشجرة التي صُعقت، قِفران النحل ترزح تحت سيطرة اللهب المدمّرة والنحل يحوم حول نفسه. ويحاول ليوبولد بدلوٍ إطفاء النيران.

– القِفران! صرخ أورليان. يجب أن ننقذ القِفران!

ركض إلى المنحلة، مخنوقاً بالدخان، واتّجه بسرعة إلى البئر.

– بسرعة، ليوبولد! بسرعة! يجب إنقاذ النحل!

---

٣ Le foehn: أصل الكلمة ألماني، هي رياح جبلية ساخنة جافة وقوية، معروفة في منطقة شمال جبال الألب. وتؤدي هذه الرياح إلى الجنون حسب المعتقد الشعبي.

صارع الرجلان لوقت طويل مع دولاب الحبل والدلاء والماء، قبل أن يفهما أن الأوان قد فات. وأنّ النار قد أجهزت على العسل، وعلى النحل وعلى القِفران. وحوّلت ذهب النحّال إلى غيمة رماد هائلة تتصاعد إلى السماء.

لم يتبقّ من منحلة أورليان روشفير، إلّا ركامٌ من خشب مُتفحّم ورماد مبتلّ.

طوال أسبوع كامل، وأورليان روشفير حبيس غرفته. يحاول نسيان ما قد خبره للتوّ. لا كلام العزاء الذي قاله ليوبولد، ولا حنان بولين استطاعا أن يخرجاه من اليأس الذي سكنه. كانت النار قد سرقت للتوّ الجزء الأجمل من حياته ومن الآن فصاعداً قَنَط من كل شيء.

ظلّ مكروباً في سريره، ليومين لم ينبس بكلمة. وفي صباح اليوم الثالث، قرّر تغيير أفكاره فذهب ليحضر كتاباً من مكتبة جدّه. وبعد بحث عثر على كتاب لفت غلافه انتباهه. فقرأه دفعةً واحدةً، مندهشاً من قدرته على الاهتمام بشيء غير تربية النحل.

كان الكتاب روايةً، تدور أحداثها في أفريقيا حيث تروي مغامرات رجل باحث عن الذّهب.

بعد قراءة طويلة، صنع أورليان هذا الحلم الرائع والمحدّد عن الجنّة، الحلم الذي سيغيّر مجرى حياته.

أورليان سائرٌ في الصحراء، يصل أسفل جرف شديد الانحدار يتدفّق منه بغزارة شلّال ماء عذب. عَطشان، يركض ليسبح فيه، يمنحه انزلاق الماء على جسده نشوة عارمةً. بقي للحظات طويلة يتذوّق هذه اللذّة، إلى أن أحسّ بحضور ما. عندئذ التفت ورأى امرأة تقترب نحوه. عاريةً، بجمال غريب. شعرها أسود وعيناها سوداوان، غير أنّ بشرتها صفراء كالذّهب. أراد أورليان أن يكلّمها ولكن لم يخرج أيّ صوت من فمه. وما إن أشارت بحركة من يدها، حتى بدأ الشلّال يتحوّل إلى شلّالٍ من عطرٍ ومن عسلٍ هائلٍ متساقط.

في اليوم التالي، خرج النحّال من غرفته، ووقف أمام ليوبولد وبيده الكتاب، وقال:

– أريد الذهاب بحثاً عن الذّهب.

ودون أن يعطي أيّ تفسير، بدأ يعدّ حقيبته وهو يحدّق في نظرة جدّه الزرقاء. كان يعلم جيّداً أنّ العجوز لن يفهمه.

– أريد مغادرة لانغلاد، بروفانس. مغادرة فرنسا.

– والنحل؟

لم يجب. أغلق حقيبته، وحدّق مطولاً بالنار التي تطقطق في الموقدة، وقرّر أنّ أوان الرحيل قد حان.

– أريد أن أذهب بحثاً عن الذّهب، كرّر. هناك في أفريقيا.

ثمّ رمى حقيبته على كتفه وخرج.

كان هذا الرجل يمتلك تصوراً غريباً عن الحياة: كان يعتقد أنّه ما من طريق أمام المرء ليجدَ نفسه يوماً سوى الضياع.

استدار عند الفسحة ليرى، للمرّة الأخيرة، بيت المزرعة الأمغر والذي زرع الجدّ أمامه شجرتي ليمون. تذكّر أنّه كان كلّ صباح في الصيف يقطف ليمونةً، يلتهمها وهو ينظر إلى طلوع الشمس. تأمّل أيضاً حقل الخزامى، وركام الرماد في آخر الحديقة، حيث لم يجرؤ أحد على إزالته.

– لماذا البحث عن الذّهب؟ سأل ليوبولد. هذا البحث، لن يفضي بك إلى مكان. وهو لن يُثري غير الأحلام.

تنهّد أورليان مطولاً. لم يكن لديه ما يقوله.

– والنحل؟ بإمكانك أن تعود وتبدأ من جديد. ثمّ هنالك الخزامى أيضاً.

– لا تكلّمني بهذه الأمور مجدداً.

احتفظ العجوز بصمت طويل، محاولاً خلاله النفاذ إلى روح أورليان. غير أنّ ما رآه في نظرة الشاب جعله يرتعد. إذ بدت فيها شساعة الأرض.

– تريد أن تذهب؟ ليكن. جنون إضافيّ. وأعرف أنّي لن أستطيع تغيير رأيك. ولكن لماذا أفريقيا بالذات؟

– لأنّي رأيت حلماً، وكان في هذا الحلم امرأة وكانت فيه أفريقيا.

تنهّد أورليان، وعدّل حمّالة حقيبته، استدار ومضى في الممشى المفروش بالحصى.

ربّما ليس هذا هو الجواب الذي تمناه ليوبولد. لكنّه اكتفى به.

– وبولين؟ هل فكرت ببولين؟ إذا ذهبت، سيتزوّجها آخر.

وهو جالس على طاولة المقهى في ساحة القرية، حرّك أورليان يده، كأنّه يطرد عنه عدم يقين. وكتب رسالة لبولين.

الرجل الذي كلّمه للتوّ، كان كلوفيس.

– إذا كانت بالفعل مغرمةً بي، ستنتظرني.

– ومع ذلك، لنفترض أنّك تأخرت بعودتك، وهي تزوّجت في تلك الأثناء؟

ابتسم أورليان بهدوء.

– إذن، لم تكن مقدّرة لي.

حين رآها، كانت بولين منشغلةً بتثبيت اللصاقات على زجاجات الخزامى. تفعل ذلك بعناية فائقة، ودقّة لا متناهية، كأنّ حياتها متوقّفة على هذا الشيء.

تردّد أورليان للحظات، نظر إلى الفتاة وقال:

– إنّي ذاهب.

– إلى أين؟

– أفريقيا.

تردّد أورليان قليلاً.

– سأذهب بحثاً عن الذّهب.

لم ترتجف بولين. فقط، تخلّلت نظرتها الزجاجة الزرقاء التي تمسكها بيدها.

– هنا أيضاً، يوجد ذهب.

ثمّ أضافت، بصوت رقيق:

– الذّهب الذي أمام عينيك، وأنت لا تراه.

قالت هذه الكلمات بعذوبة غريبة، دون أن ترتعش. لكنّ أورليان

لم يكن يصغي لها. كانت رحلته قد بدأت، و لم يعد شيء ذا قيمة في نظره.

- خذي، كتبت رسالة لأجلك. أظنّها رسالة حبّ.

من كثرة ما كان صوته خفيضاً ما كان له حتّى أن يزعج نعاس الملائكة.

- وهي رسالة وعود أيضاً، أضاف أورليان. تستطيعين إن أردت ألّا تفتحي الرسالة، إلا حين أغادر.

قدّم لها ظرفاً أبيض مكتوباً عليه بخطّ ناعم أسود.

- حسناً أورليان، ربّما الأفضل لنا نحن - الاثنين - أن أقرأها لاحقاً، حين تكون النحلة قد غادرت قفيرها.

أخذت الظرف أخيراً، ودون أن تفتحه، وضعته في صدرها وضمّته إلى قلبها.

حين أخذ طريق مرسيليا، كان أورليان روشفير يسير ببطء على درب أحلامه. صوب الحبشة. كان قد قرأ في الكتاب، أنّنا نستطيع في الحبشة جمع ثروة بحفر الأرض. كانت تضمّ البلد، كما يقال، أراض واسعة وغنيّة كأراضي كاليفورنيا.

لم يكن يعلم ما الذي سيجده هناك، ولكنّه يعلم أنّ قدره البحث عن شيء ما. شيء له لونِ الشمس.

وربّما كانت هذه الشمس، هي أفريقيا.

بمروره بآرل، توقّف في نُزل كاريل، في شارع ٣٠ كافلري.

وعلى شرفة المقهى، أمام كأس أبسانت، لاحظ رجلاً غريباً، يقف وسط الشارع وهو يرسم. كان هذا الرجل يرسم بنزق، تقريباً بجنون، لكن بصمت، كما لو أنّه مغلق عليه داخل فقاعة حلم وما من أحد غيره في العالم. كان له شعر أحمر، ويضع قبّعة قشّ على رأسه ويلبس قميصاً أزرق بلون الخزامى. بإمكان المرء أن يلمح في نظرته شيئاً غامضاً وشفّافاً يشي بما يشبه سأماً من الحياة.

رأى أورليان وهو يقترب من الرسّام أنّه كان يرسم نفسه. بورتريه. دون مرآة. ورغم ذلك بشبه كامل.

وما أثار حفيظته مجموعة الألوان التي وضعها الرجل على الباليت لرسم نفسه: أصفر ليموني، أخضر داكن، ترابي، وردي، أزرق الكوبالت، برتقالي، بنفسجي، كروم، زمردي. تناسق رائع. دوار من الألوان.

– جميلة، كل هذه الدّرجات من الألوان.

لم يرفع الرسّام رأسه. بدا مأخوذاً بعمله وكأنّه لم يسمع شيئاً.

بعد برهة مبالغ في طولها، رفع عينيه صوب أورليان وقال:

– ماذا تعرف عن الألوان؟

– لا شيء.

– إذن ماذا تريد مني؟

محرجاً، سمع أورليان نفسه يجيب:
– أن ترسم بورتريه لامرأة.

لم يصدر أيّ ردّ عن الرسّام.

– ليس لديّ الكثير من المال، ولكن عندي زجاجة من خلاصة الخزامى أستطيع أن أقدّمها لك مقابل عملك.
أخذ حقيبة سفره وأخرج منها زجاجة زرقاء.

– إنّها لك، أرجو أن تقبل.

– متى ينبغي أن تأتي؟

– من؟

– المرأة التي سأرسمها.

– لن تأتي.

مرّ صمت طويل، استأنف خلاله الرسّام عمله. ثمّ قال:

– كيف تريدني أن أرسم بورتريه لامرأة لا أعرفها؟

أضاف وهو يرفع رأسه:

– والتي لن تأتي.

رأى أورليان وجهه ملطخاً بالألوان: ذقن صفراء وحمراء، عيون زرقاء، وشعر أحمر.

– هي فاتنة جداً وبشرتها بلون الذّهب.

نظر إليه الرسّام مطوّلاً، وقال ما يشي بعدم التصديق:

– بشرة من ذهب؟

– بلى. هذا كلّ ما أعرفه عنها. وبإمكانك تخيّل الباقي.

نظر الفنّان إلى أورليان وأدرك أنّها فكرة جميلة. رسم امرأة ليس لها وجود على الأرجح. لكنها تستحوذ على هذا الرجل.

ثبّتَ قماشة جديدة على منصبه، واختار ثلاثة ألوان وضعها على الباليت وبدأ الرسم.

عند المساء، كان منتهياً من عمله فقايض اللوحة بالزجاجة.

رأى أورليان في اللوحة امرأة لها عينان سوداوان وشعر أسود، وبشرة بلون الذّهب، وكانت تنظر إليه بغرابة.

– إنّها بالضبط هي، قال أورليان.

– كنت أعرف ذلك.

حيّاه الرسّام، وأخذ أغراضه ومضى.

طلب أورليان من صاحب النزل أن يحتفظ باللوحة خلال فترة رحلته.

– سأعود لأخذها عند عودتي. أنا اسمي أورليان روشفير. لا تنسَ هذا الاسم.

– ومتى ستعود حضرتك؟

رسم الشابّ ابتسامة وأجاب:

– لو أعلم، ما كنت ذهبت.

في مرفأ مرسيليا، يوم عيد القدّيسة سيلين، صعد أورليان على متن السفينة المغادرة إلى شواطئ البحر الأحمر.

كانت الرحلة بطيئة وجميلة، أشبه بشرود على سطح البحر، تبدأ بزرقة البحر المتوسّط. مروراً بالشّعاب المرجانيّة للبحر الأحمر. وأخيراً، ذهب أرض أفريقيا.

وهو في وحدته احتفل بعامه الثالث والعشرين. كم هو يافع! ورغم ذلك، للمرّة الأولى في حياته، كان الزمن يمرّ عليه دون رحمة، يتجرّعه ككأس سمّ علقم.

بالطبع كان ذلك بسبب روحه. التي بدت له ثقيلة بلا حدود وخفيفة بروعة، كما لو أنّها ظاهرة لا يمكن تفسيرها ورغم ذلك لا يصعب فهمها، روحه قد استعملت من قبل لمرّات عديدة. وكانت هذه حياتها السابعة والأخيرة.

متهادياً على مياه المتوسّط، كان أورليان يرى أن كلّ شيء حوله أزرق بالكامل. زرقة بسطوع الصوّان، وببرودة قمريّة.

لم يستعد سكينته إلا حين ظهر الشفق. وغرقت الشمس، مثل نحلة مكوّرة، في البحر جاعلةً منه ذهباً بأكمله.

أوّل محطّة للسفينة كانت في بور سعيد. وبور سعيد هي صحراء تأتي لتنفَق في البحر. وما من شيء فيها يمكن فعله غير انتظار الانطلاق القادم صوب الجنوب.

استغلّ أورليان هذا التوقّف ليزور المدينة، ثمّ عاد متضايقاً من الشحاذين وتجار السوق، وصعد السفينة و لم يعاود النزول.

في المساء، سمع نباح الكلاب حتّى وقت متأخّر من الليل. تجوّل لمدّة طويلة على الجسر مسكوناً غبطة بالحياة، لا يسهلُ وصفها. كان في مفترق الطريق بين عالمين. كان روشفير يترك آثاره في مياه فرنسا الزرقاء والهادئة، قاصداً البحر الأحمر، وهو يدرك أنّه يجتاز بوّابة الشرق ويدخل رويداً رويداً في دفء العالم.

في سنة ١٨٦٩، شخص يدعى فرديناند دولسبس جعل فتح قناة السويس متاحاً، مقدّماً بذلك إلى المغامرين والمسافرين والتجار طريقاً جديدة باتّجاه إفريقيا. كان ذلك جنوناً بالطبع: إدخال نار البحر الأحمر إلى زرقة البحر المتوسّط. لكن بعد تسعة عشر عاماً، استفاد أورليان روشفير من هذا الجنون.

في هذِا الجزء من العالم، كانت الأرض تنزف في المياه، تاركةً السماء تلأَمُ جرحها بقطع من ضوء. في ذلك المساء، فيما تنساب السفينة بِبطء على مياه قناة السويس، في الهندسة المرتجفة للموجات التي تشكلت من المقابلة غير المنتظرة بين البحرين المتعاكسين، تنفّسَ أورليان عطور الشرق الرائعة، وروائح التوابل وأدرك أنّه أخيراً صار على مشارف أفريقيا.

نزل ذات صباح من تشرين الثاني في مرفأ عدن، في اليمن. لا يملك غير شجاعته وعدم مبالاته.

عدن هي بركان. فوّهة هائلة على أرض قمريّة، متآكلة من ألف شمس، ومشقّقةً مثل قشرة برتقالة. من اللحظة الأولى نختنق فيها، ومن اليوم الأوّل، نميل إلى الفرار من شظيّة الصخر هذه التي تسطع مثل جمرة متوهّجة، تلتهب تحت قدميك دون أن تنطفئ أبداً.

ما إن وطئ أرضها، فهم أورليان أنّه لن يبقى وسط هذا اللهيب. شعر بنداء السفر، وهو يحدّق إلى صخور ستيمر بونت[٤] تغرق في البحر باتّجاه الجنوب، ولم تراوده إلّا فكرة وحيدة: أن يعبر البحر الأحمر ويغوص في قلب أفريقيا.

عند أوّل مجموعة رجال صادفهم على المرفأ، قال:

- لقد أتيت بحثاً عن الذّهب. أين يمكنني أن أجد مركباً شراعياً لأقطع البحر وقافلة توصلني إلى هراري؟

تعالت ضحكات الرجال مقهقهةً. أحدهم، لا أسنان له، تظهر لثّته خضراء متآكلةً بالعفونة. بصق على الأرض لعاباً أسود، كما لو أنّه يعبّر أكثر عن اشمئزازه.

---

٤ Steamer Point: هو اسم الميناء القديم في عدن، والذي كان في فترة الاستعمار البريطاني محطة مهمة على طريق الهند.

– لا شيء يُبحث عنه في أفريقيا، غير البؤس، المرض والموت. عد من حيث أتيت إن كنت لا تريد أن تموت فيها!

– لا أبالي. سأذهب رغم ذلك.

أخذ حقيبته، حيّاهم بإيماءة من رأسه وغاص في المدينة.

هكذا كان هو. فما إن يلمح لمعاناً من بعيد، حتّى لا يعود شيء يستطيع أن يحيده عن دربه.

والرجل الأدردُ فهم أنّ أشدّ المثبّطات لا يمكنها أن تثبّط همّة هذا الغريب.

رأى ذلك في عينيه. كان أورليان يطارد حلماً.

عدن صالة لانتظار الموت. فإمّا أن نعود أدراجنا، أو نعبر البحر الأحمر. البقاء في عدن يعني الموت على نار هادئة.

أخيراً عثر على مراكبيّ ليعبر البحر، وقافلة قبلت بإيصاله إلى هراري مقابل مبلغ باهظ من المال. كانوا تجاراً من السكان الأصليين، ينقلون الزيت والشمع والأسلحة.

- إلى أين تريد الذهاب؟ سأله التاجر.

- حتى آخر الرحلة. إلى هراري المدينة المقدسة.

- تستطيع مرافقتنا.

أومأ أورليان بالموافقة والتحق بالقافلة.

كان معه سبعة رجال ببشرة محروقة بالشمس والريح الرملية، سبعة رجال على الجمالِ من أجل السفر المستحيل صوب مملكة غير معروفة. سبعة رجال سَكنهم الجنون. قائدهم يمنيّ، له عينان بسواد الليل وندبة عريضة أخذت نصف وجهه. لم يكن يفارق سيفه الطويل المتدلي على جانبه. كان هؤلاء الرجال ذاهبين ليعرضوا بضاعتهم على زعيم هراري، مستثارين بطعم الربح.

عند كلّ صباح، كان أورليان يلاقيهم أمام منزل مهيب يعود إلى أوغست جونفيية، في ساحة سوق الجمال.

كانوا ينتظرون هناك، بصمت، الوقت المناسب للانطلاق. ولكن القائد كان يطالعهم كلّ صباح بوجه متجهم، ويعلن لأورليان أنّ الرحلة قد أجّلت.

– ماذا تنتظرون للرحيل؟ كان يسأل روشفير.

– أن يدفع لنا جونفييه.

كان أوغست جونفييه أحد أولئك الرجال الذين عملوا الأساطير.
كان يمتلك متجراً ناجحاً ومزدهراً، وبالطبع أجمل بيت في عدن.

كان يكره النساء والسكّان الأصليّين.

وكان يزن مائتي رطل ويملك بضعة أطنان من الذّهب.

وعلى قدر ثرائه بالمال كان فقير القلب.

بقي السكّان الأصليّون أمام باب أوغست جونفييه ثلاثة أيّام.

– أوغست جونفيية لن يدفع أبداً، قال القائد.

– لماذا؟ سأل روشفير.

– لأنه الأكثر ثراء. هم فقط الذين يملكون المال لا يدفعون أبداً، وهذا ما يجعلهم الأثرى.

– كم يدين لكم؟

– بثمن مئة كيلو من القهوة. أي ما يعادل ألف تالر[٥].

– وهذا المبلغ كاف لتجهيز قافلة جديدة إلى هراري؟

– بلى.

عقد النحّال حاجبيه، ثمّ قال:

– هيا بنا لنرى السيد جونفييه.

---

٥ thaler: عملة نقدية كانت متداولة قديما في الحبشة.

أخذ القائد اليمنيّ أورليان إلى أوغست جونفييه. وبما أنّه كان أوربياً، لم يجد صعوبة في دخول منزل التاجر الأهمّ في عدن. لم يكن أوغست جونفييه ينتظره. عدا عن أنّه لم يكن ينتظر أحداً. حين اندفعوا إلى مكتبه، رأوا رجلاً ببنية مهيبة ونظرة قاسية.

– من سمح لكم بالدخول؟

– لا أحد. لماذا لا تسدّد ما عليك لهذا الرجل؟ سأل أورليان وهو يشير إلى القائد اليمنيّ.

كان هذا الأخير يرتجف من رأسه حتى قدميه، لم يجرؤ أن ينبس ببنت شفة.

– لأنّي لا أدين له بشيء. أنا لا أتعامل إلّا مع المتحضّرين. لابدّ أنّه سرق هذه القهوة من رجل أبيض، وأنا لا أدفع للصوص أبداً.

– بهذه الحالة، أنت مدين لي، قال النحّال. هذا المخزون من القهوة ملكي. سلّمته لهذا الرجل كي يبيعه في عدن. وبالمحصّلة تدين لي بألف تالر.

أخفى أوغست جونفييه استغرابه، وفكّر للحظة، ثمّ حدّق في أورليان وقال:

– أنت تكذب.

- وما هو الدليل، أجاب أورليان، وما هو دليلك أنّك أنت ذاتك لم تسرق، هذه القهوة؟

ابتسم أوغست جونفييه، وأخرج رزمة مال من جيبه.

- هذه خمسمائة تالر. إنّها لك. هذه الحمولة من القهوة لا تساوي أكثر من ذلك. والآن أغرب ولكن أعطني وعداً بألّا تعود وتتشفّع للسكّان المحليّين. إنّك تضرّ بأعمالي.

قبل أورليان المال وأعطاه للقائد اليمنيّ وخرج من الغرفة وهو محدّق بعيني أوغست جونفييه.

وأضاف قبل أن يغادر:

- لا تخشَ. كلمتي من ذهب.

في ساحة سوق الجمال، صرخ اليمنيّون من الفرحة حين لوّح لهم القائد برزمة المال.

- كيف لنا أن نشكرك؟ سأل القائد.

فكّر النحّال.

- بأن توصلني إلى هراري المدينة المقدّسة.

- اعتبر أنّ ذلك حدث. ولكن ماذا بإمكاني أن أقدّم لك شيئاً آخر؟

- أن تعدني بألّا تعود أبداً للتعامل مع هذا الرجل.

في ذلك المساء غادروا عدن. انتظروا حتّى يهبط الليل ليحمّلوا الجمال والبضائع في المركب الشراعيّ. امتنع أورليان عن الكلام، مكتفياً بمراقبة ما يدور حوله. كان كلّ ما يراه ساحراً: المياه النائمة، رائحة الليل الدافئ، بحر المرجان وأفريقيا، ثمّ أخيراً، أفريقيا الحقيقيّة التي تلوح من بعيد، في أعالي الحاجز المائيّ الذي كان مضاءً بوضح النجوم.

وصلوا في اليوم التالي إلى زَيْلع. هناك غادروا شاطئ البحر الأحمر كي يغوصوا في صحراء الصومال.

لقد بدأت الرحلة الحقيقيّة.

صحراء الصومال مكان فظيع. نهاراتها محرِقة ولياليها مصقعة. لا تتوقّف الريح فيها عن الهبوب، ولا أثر لنبت فيها، صخورها خدّاعة وجارحة مثل الصوّان. تجد فيها الأفاعي والعقارب والقطّط الوحشيّة، القبائل والأمراض، العطش، وأكثر شيء الشمس. شمس قاسية، لقربها نستطيع لمسها بأصابعنا.

سار المسافرون لأسابيع طويلة، متحدّين الحرارة والأخطار. في اليوم الثالث عشر، هاجم قطّ وحشيّ أحد اليمنيين فمات متأثراً بجروحه. وبعدها بقليل ذبح رجلان، كانا قد ذهبا ككشّافة، من قبل قبيلة الدناكل، وهم متطرفون إسلاميون معادون للغرباء. فيما أصيب الرجل الرابع بزُحار، وقضى بعد بضع ساعات. ثمّ توفّي الخامس مصاباً بالملاريا. مما استدعى ترك المؤُونَة والمضيّ حتى الإنهاك.

كلّما تقدّمنا في الصحراء كنّا نشعر أنّا نصارع العدم. كلّ يوم يشبه الآخر، كلّ مرحلة جحيم، وكلّ خطوة ألم.

كانت الصحراء الصوماليّة بالنسبة لأورليان، درساً بليغاً. للمرّة الأولى في حياته، عرف قيمة الحياة وهشاشة هذه القيمة، فهم أنّ الحياة في الصحراء، كانت تقوم على لا شيء تقريباً: قطرة ماء، لأنّ الماء هو ذهب الصحراء.

حين كرجت آخر قطرة على شفاه النحّال، نظر الرجلان إلى

بعضهما وأدركا أنّ القيمة الحقيقية للحياة، تقاس الآن بقدرتهما على تحمّل العطش.

– هراري على مسيرة يومين. لذا ينبغي أن نسير الليل والنهار. وإلّا، سنموت.

أومأ أورليان برأسه موافقاً. لم يكن يشعر بحاجة أن يُفرّط بلعابه بكلام فائض عن الحاجة.

عدا عن أنّ لعابه قد جفّ.

العطش عذاب غريب. بإمكانه أن يجعل المرء يفقد صوابه من الألم.

في اليوم الأوّل، شعر أورليان بدوار. كان يحاول أن يركّز انتباهه على المشهد الطبيعيّ، غير أنّ هذه الصحراء الجافّة كانت قد نفّرته.

في المساء، حين لزم الأمر قليلاً من الراحة، ظنّ أنّه سيموت. كانت تبدو الجمال وحدها فقط، بلا سروجها، قادرةً على احتمال العطش.

– هل تعتقد أنّنا سنصلها؟ سأل أورليان اليمني.

ثبّت الرجل عينيه السود في عيني أورليان وقال له:

– يجب. فالموت من العطش، هو أكثر عذاب أعرفه فظاعةً. رأيت مرّة دابةً تموت من العطش. ولا أرتضي هذا العذاب لأحد.

فكّر أورليان وقال:

– أتظنّ أنّ بإمكاننا العيش سبع حيوات؟

نظر اليمنيّ إليه مستغرباً. هذا الفتى الأوربيّ يتكلم مثل حكيم عجوز.

– لا أدري. ربّما بعض الأرواح تحتاج وقتاً لتكتمل.

– سبعة، هذا رقم جيد. الحياة السابعة تساوي ذهباً.

– بلى، قال اليمنيّ. هي الأخيرة أيضاً لتجعلها غنيّة في الخاتمة.

ساد صمت طويل، لا تكاد تفسده إلّا موسيقى الريح.

– بالمحصّلة، قال أورليان وهو ينهض، ينبغي أن نواصل المشي أكثر فأكثر.

– ألست متعباً؟

مرّر النحّال لسانه على شفاهه الجافة من العطش.

– أبداً. لست متعباً من أنّي أحيا.

في تلك الليلة، وهو يسير في الصحراء، تملّك أورليان حدس مثل الذي لا يأتي إلّا في لحظة الموت: الحياة ليستْ متماسكة إلّا بفضل خيط. خيط من الذهب منسوج بالأيّام التي نفهم بها أنّ الحاجة لأن تروي عطشك ستبقى دوماً أقوى من نشوة الشرب. وأنّ الرغبة في البقاء على قيد الحياة ستبقى على الدوام أجمل من متعة أن تحيا.

وتمنّى، بكلّ قواه، أن يظلّ مرتبطاً بهذا الخيط.

في يوم العطش الثاني، استطاع القائد اليمنيّ أن يقطف بضع قطرات من الندى عن جذر محميّ من الشمس.

– خذ، قال، ثلاث قطرات لكلّ واحدٍ.

وضع الندى على شفاهه وأحسّ أنّ هذه القطرات أغلى من الذّهب.

– سنكون في هراري هذا المساء، قال اليمنيّ.

– سنكون في هراري هذا المساء، ردّد أورليان.

وصلا هراري، واستطاعا الإفلات من العطش، ولكن ليس من الجنود.

فما إن دخلا المدينة، حتّى ركضا صوب البئر. وما أن رويا عطشهما حتّى أخذهما رجال مسلّحون ليمثلا أمام راس ماكونين، حاكم هراري.

– من أنت وماذا تفعل هنا؟ سأل عالي المقام الحبشيّ القائدَ اليمنيّ.

كان متربّعاً على الأرض، ويرتدي ببساطة جلابيةً بلون ترابيّ. عيناه سوداوان ومتّقدتان ويمرّر يده باستمرار فوق ذقنه.

– أنا تاجر. أتيت أعرض عليكم زيتاً، وشمعاً، وأسلحة.

فكّ بضاعته. ألقى عليه ماكونين نظرةً باردةً.

– فيما يخصّ الزيت والشمع، شعبي ينتجها بكثافة ولا مجال للمنافسة. أمّا المتاجرة بالسلاح فهي ممنوعة على هذه الأرض. وبالتالي ستصادر بضاعتك. أمّا بالنسبة لك، فسوف ترمى خارج المدينة بسبب المتاجرة غير القانونيّة.

بدأ القائد اليمنيّ يصرخ صرخات عالية غير أنّ رجلين حملاه وأخذاه.

– وأنت، من أنت وماذا أتيت تعمل هنا؟ سأل ماكونين وهو يلتفت باتّجاه أورليان.

– أنا أبحث عن الذّهب.

– وأتيت إلى أراضي الحبشة لهذه الغاية؟ أتيت ساعياً وراء الثروة؟

– بلى. لهذه الغاية ببساطة.

– لقد أخطأ من أخبرك. هنا، لن تجد شيئاً ذا قيمة، على الأكثر بعض النحاس أو الغضار. كلّ ما في هذه الأرض من ذهب، قد استخرجته سابقاً. و لم يبق شيء، ولا شذرة.

– أعتقد أنّي سأحاول رغم ذلك.

– كما يحلو لك. ولكن أتعلم ما نفع الذّهب؟

– يدفع إلى الحلم.

كان راس ماكونين إلهاً بين الرجال، كما كان أورليان روشفير رجلاً بين الأحلام. ودون أن يتبادلا الكلام، فهما بالعينين أنّ ذات الذّهب يلمع في نظرتهما.

– أنت حرّ في التجوال على طول الأرض الحبشيّة، شريطة احترام التعاليم الإسلاميّة. أمّا الآن، فامضِ!

شكره أورليان، وذهب بعد أن حيّاه مطوّلاً.

وحين اقترب من الباب تقاطعت نظرته بنظرة فتاة كانت تدخل الغرفة. فتن لشدّة جمالها. شعرها وعيناها سوداوان تبرقان، وبشرتها نحاسيّة بلون العسل. نظرت إليه الشابة، وعبرت من أمامه دون أن تنبس بكلمة ومضت لتنحني أمام راس مكونين. وقبل أن يغادر الغرفة، التفت إلى الزعيم للمرّة الأخيرة:

– أين يجب أن أبحث لأجد الذّهب؟

كما لو أنّ ماكونين عرف أنّ الفتى سيسأله هذا السؤال قبل أن يذهب، أجابه على الفور، وهو يمسّد ذقنه:

– لا يوجد ذهب هنا، أخبرتك بذلك سابقاً. من الأجدى لك أن تعود إلى ديارك.

نظر أورليان إلى ماكونين للمرّة الأخيرة ثمّ إلى الفتاة التي بجانبه، وللحظة قصيرة، لفتت رأسها باتّجاهه، فأدرك مباشرةً أنّ في نظرتها شيئاً من الغرابة.

تمتلك هذه المرأة مقدرة على تلقيح الحبّ بمجرّد النظر إليك. في نار نظرتها نلمح سُمّاً لا يقوى القلب على تحمّله.

لقد أيقظت عينا الفتاة ألماً قديماً، يَخِزُ، مثل وخز النحل. ألم حبّ لا تُنزع إبره.

في اليوم الثاني، عاد أورليان روشفير إلى القصر، جثا أمام ماكونين وسأله:

– ما اسمها؟

كان يتكلّم عن الفتاة التي رآها في الأمس. نظر إليه ماكونين مطوّلاً وهو متربّع قبل أن يسأله بدوره:

– لَمَ أنت مهتمّ بها؟

– لأنّها تشبه امرأة رأيتها في حلمي.

ضحك الحبشيّ.

– الأحلام تقدّم نصائح سيئة. الأجدى لك أن تنساها.

ثم أشار بحركة فهم منها أورليان أنّ عليه أن يستأذن بالانصراف.

في اليوم الثالث، وبما أنّه كان يهجس بصورة الفتاة، رجع أورليان لرؤية ماكونين.

– من هي هذه المرأة؟

– لا أعرف. على فكرة لا أحد يعرفها. فتيات الغالا متحفّظات جداً.

– لا أهمية لاسمها. أين هي الآن؟

للمرّة الثانية، تهرّب ماكونين من الإجابة:

– لا أحد يعلم. على الأغلب عادت إلى قريتها، هناك، على الجبال.

– أيّ جبال؟

قام الزعيم بحركة مبهمة كأنّه يطرد ذبابةً. إشارةً إلى أنّه لن يقول المزيد.

تنهّد أورليان، ثمّ نهض واستأذن بالانصراف.

في اليوم الرابع، رجع أورليان روشفير إلى القصر، وجثا أمام الزعيم وسأله:

- من هي هذه المرأة؟

- بالفعل، إنّك أعند من بغلة. أخبرتك سابقاً أنّها فتاة من الغالا.

- وأين هي الآن؟

لم يجب الزعيم هذه المرّة.

وقف أورليان، واستعدّ ليستأذن بالانصراف، مقتنعاً لمرّة إضافيّة بعدم جدوى طلبه، حينها أصرّ عليه ماكونين أن يبقى. ثمّ، قال وهو يُمسّد لحيته ببطء:

- هذه المرّة الثالثة التي تسألني فيها السؤال ذاته، وحسب العادات ليس مسموحاً أن يكذب المرء ثلاث مرّات متتالية. جواب سؤالك: إذا استطعت أن تجد بلد النحل، فستجد الفتاة التي تبحث عنها.

رنّ صوت الحبشيّ كنداء مؤذّن من أعلى مئذنته.

صمت أورليان لبرهة طويلة. ثمّ كما لو أنّ الأمر سرّاً لا تعرفه غير الآلهة، كرّر بصوت خفيض:

- بلد النحل؟

- بلى. جبل بجدران مثقوبة بأقراص تطفح بالعسل. ندعو هذا

المكان جرف النحل. يقال أيضاً أنّ في هذا الجبل عسلاً أكثر من كل ما في الحبشة.

لم يكن بإمكان روشفير التأكّد إن كان الحبشيّ صادقاً فيما يقول أم أنّه كان يكذب ليثنيه عن عزمه. لكن ماكونين كان ينظر مباشرةً في عينيه، ما جعله يدرك أنّ هذا الرجل يريد مساعدته.

– أين يوجد هذا المكان؟

– في أعالي سهول بلاد الغالا.

مسّد ماكونين لحيته بصمت ثمّ أخذ برتقالة في يده ونهشها بأسنانه. سال عصيرها على يده وسقطت ثلاث قطرات من الذّهب على التراب رافعةً ثلاث غمامات صغيرة من الغبار.

– أريد الذهاب إلى هناك، قال أورليان. وسأجد هذه المرأة.

– لا تنس أنّ جرف النحل مكان مقدّس.

– لماذا أعطيتني السرّ إذاً؟

– ليس بإمكان أحد أن يمنعك عن اللحاق بحلمك. ولكن ينبغي أن تعلم أنّك إذا دخلت جرف النحل، تكون قد انتهكت قوانين قبيلة الغالا، وقد تعرّض نفسك للموت.

فكّر أورليان مطولاً، وهو يمسّد لحية وهميةً.

– أنا جاهز للمجازفة.

في اليوم الخامس، ماكونين هو الذي طلب أورليان.

– إنّ الرحلة التي ستبدؤها محفوفةً بالمخاطر، قال ماكونين، وباعتقادي أنّك في النهاية ستجد ما تبحث عنه وبعدها ستندم أنّك عثرت عليه. لماذا لا تذهب إلى عدن وتعود منها بحراً إلى ديارك؟

– لأنّي محتاج إلى إفريقيا. وأحتاج الفتاة أيضاً.

أخفض ماكونين رأسه كعلامة موافقة. نادى على أحد حجّابه وأصدر أمراً، وبعد لحظات، قدّم إلى أورليان صندوقاً فضيّاً صغيراً.

– افتحه، قال.

رفع أورليان الغطاء فوجد بداخله نحلتين صغيرتين، جوهرتين منحوتتين من الذّهب الخالص.

– هاتان النحلتان لك. حين تراهما، ستذكرني، وتذكر حلمك وأفريقيا.

بعد أسبوع ترك أورليان روشفير مدينة هراري قاصداً جرف النحل.

ولكي يوفّر لنفسه صحبةً على هذه الطرقات الخطرة، التحق بقافلة ذاهبةٍ إلى أنكوبير. مكوّنةً من خمسة رجال، يقودها فرنسيّ يسمّيه السكّان المحليّون الإفرنجيّ، والذي كان ذاهباً لبيع أسلحة للملك مينليك.

– من أنت وإلى أين تذهب؟ سأل أورليان.

– إنّي باحث عن الذّهب وسأمشي لسبعة أيّام باتّجاه غرب هراري.

– إذا أردت الاستفادة من قافلتي، فسيكلّفك ذلك خمسين تالراً، إضافةً إلى الطعام.

دفع أورليان ما طلبه قائد القافلة، الذي دسّ المال في حزام حول خصره لا يفارقه أبداً.

بدأت القافلة بالمسير، وطوال ما تبقّى من اليوم لم ينبس أيٌّ من الرجال بكلمة. عند هبوط الليل، قرّروا التخييم بالقرب من بئر.

بعد أن تناولوا وجبتهم حول النار، خرج الإفرنجيّ عن صمته وسأل أورليان:

– لا يوجد ذهب في تلك الجبال. ما الذي تريد البحث عنه هناك؟

أدرك روشفير أنّ رفيق طريقه ليس من النوع الذي يخدع بسهولة. استلّ سيجارةً، وأشعلها من جمرة، أخذ نفساً منها ببطء، وأجاب، وهو ينفث دخانها:

– أبحث عن جرف النحل.

حدّقه الإفرنجيّ بعينيه الصغيرتين المتّقدتين.

– أخبرني عجوز عنه، منذ زمن. ولكني أشكّ بوجود هذا المكان بالفعل. من أخبرك عنه؟

– حلم.

لم يجب الإفرنجيّ. رفع رأسه إلى السماء ونظر طويلاً إلى النجوم التي تضيء الليل.

– إذا كان حلماً، فلربّما يستحق المجازفة.

في مساء اليوم الثاني من المسير، وقفت القافلة قرب واد حيث تمكّنت الجمال من الشرب. وبعد الطعام، فرش الرجال حصائرهم على الأرض وناموا.

ملأ الإفرنجيّ غليونه المصنوع من حجر زبد البحر بالتبغ، وبدأ يدخّن وهو ينظر إلى النجوم. انضمّ إليه أورليان بصمت وجلس أمامه.

– ماذا كنت تعمل في فرنسا؟ سأل روشفير.

– كنت أضجر.

– لهذا السبب أتيت إلى أفريقيا؟

– بلى، ولكني اليوم أكثر ضجراً هنا. إنّي ملعون. أتمنّى أن أعود إلى بلدي وأتزوّج. ولكن، بلا مال من سيقبل بي؟

لم يجب أورليان.

– وأنت، ماذا كنت تعمل؟

– نحّالاً.

– لذلك تبحث عن جرف النحل؟

– لا، أتيت بحثاً عن الذّهب، وصادفت امرأة كنت قد رأيتها في

حلمي. وها أنا ذا أجد نفسي مجدّداً وسط النحل. إنّها المصادفة.

- لا توجد مصادفات أبداً، قال الإفرنجيّ.

ثم زفر دخاناً أبيض من غليونه في وشاح النجوم الذهبيّ.

عند انبثاق الفجر، وهو يفتح عينيه، أحسّ أورليان بشيء يتحرّك تحت غطائه.

– لا تنهض، قال الإفرنجيّ. تنحّ جانباً، وببطء.

أطاعه أورليان. ولما تدحرج على الرمل، رأى أنّه كان ينام على عشّ عقارب.

– تبحث العقارب دوماً عن الدفء. خاصةً في الليالي الباردة. من الآن فصاعداً ستعرف ذلك.

شكر النحّال رفيق دربه.

– لا تشكرني. الأحرى بك أن تشكر الصحراء التي تزوّدك بما يبقيك حياً.

في الأيّام اللاحقة أكملوا سيرهم بصمت. فضلاً على أنّ الحرارة كانت مرتفعة لدرجة يصعب معها تبديد القوى في الكلام.

في اليوم السادس، التقوا بمجموعة غاليّين كانوا ذاهبين إلى سوق هراري لبيع عدد من الخرفان. سألهم الإفرنجيّ عن الطريق المؤدي إلى جرف النحل. أجابوه بلغتهم ثمّ استأنفوا سيرهم.

– لم يعد المكان الذي تبحث عنه بعيداً جداً، قال لأورليان.

أشار له إلى سلسلة مرتفعات جبليّة تبرز عند الأفق، في الجهة الأخرى من نهاية الصحراء الحجريّة، والتي تبدو مثل سراب هادئ.

– خلف هذا الجبل، قال لأورليان. خلف هذا الجبل، يكمن مصيرك.

– وأنت، أين ستمضي أيّها الإفرنجيّ؟

أدار الرجل وجهه الناحل صوب السماء. بدا أنّه مجمّد على الأرض بشتاء من ضوء.

– صوب مكان آخر. لتثبيت الدوارات.

كان جرف النحل يعشّش في منطقة مرتفعة، في المكان الأكثر نأياً ضمن أرض الغالا.

بعد سبعة أيّام من المشي، وصلت القافلة إلى مكان بدا منقطعاً عن العالم. الطقس جميل ومنعش، والنباتات اليانعة تغطّي المنحدرات. مشهد طبيعة رائع.

في ذات المساء فارق الإفرنجيّ أورليان روشفير بعد أن دلّه على درب يوغل في الجبل، بين جدارين صخريّين.

– هنا تفترق طرقنا، أتمنّى لك حظاً طيّباً أيّها النحّال.

– وحظاً سعيداً لك أيضاً.

أخذت القافلة طريق أنكوبير، وغاب الإفرنجيّ وراء الصخور.

أدرك أورليان أنّه أصبح بمفرده. وحيداً مع الريح والحجر. مع الصحراء. وحلمه.

لم يصبه أيّ خوف من ذلك. كانت هذه الوحدة تمنحه المعيار الحقيقيّ للصحراء. أخذ نفساً عميقاً. كان الأفق الأحمر يمتدّ على طول النظر. كان وحده وسط الصحراء الأمر الذي منحه القوّة. كل ما حوله كان ملكه، حتّى الصمت.

وهو يقف أمام الشمس، شفاهه محترقةً من الريح، عرف سعادة أن يحيا.

سار لساعات طويلة على حصباء مسنّنة مثل النصال. وصل إلى سهل عال تحيطه من الجنوب، والشرق، والغرب هاوية بارتفاع نحو ألف قدم، ومحدّد من الشمال بجرف عموديّ هائل. صعد أورليان الدرب حتى أسفل الجرف. بدا أن لا وجود لمخرج. قرّر أورليان مواصلة تقدّمه، على أمل إيجاد درب ليواصل صعوده، غير أنّ السور بقي متواصلاً.

وحين هيّأ روشفير نفسه للعودة، سمع صوتاً لا يبعد عنه إلا خطوات. أصاخ السمع. وإذ بهذه اللُقية الرائعة: نبع وسط الصحراء.

مثل سحرٍ كان النبع ينبثق من الصخر.

منذ ألف عام يسيل هناك.

ماء يأتي من اللامكان.

رغم ذلك، كان هناك، مثل إعجاز وسط الصحراء.

هناك، كانت الحياة.

جثا أورليان على ركبتيه وشرب جرعات كبيرة من الماء العذب. ثمّ، بعد أن روى عطشه، ابتعد متعقّباً خطّ الماء الرفيع بين الصخور.

وإذ بموسيقى أخرى، أكثر طنيناً من موسيقى الماء، بدأت تئزّ في أذنيه. رفع راسه باتّجاه الجرف ورأى أنّه قد وصل إلى نهاية رحلته.

لقد كان أسفل جرف النحل.

أعداد غفيرة من النحل هائلة الحجم، كانت تحوم فوقه. من شدّة الطنين شعر للحظات بالدّوار. تستَعمر هذا الجرف آلاف مؤلّفة من النحل تلمع مثل نقاط ذهبيّة على الصخر الأسود. كان بينها في الأعلى أشخاص، لا يمكن التأكّد منهم بسهولة، لشدّة عدم لفتهم النظر يمكن أن تخطئ بينهم وبين الجدران.

هم صيّادو نحل. أحدهم كان متعلّقاً بسلّم من الحبال، يحاول أن يبعد الحشد عن جيب من النحل. وبمساعدة العصا تمكّن من ثقب الجيب واستلام العسل في الجرّة. كالذّهب الذائب سال العسل على طول الصخرة السوداء.

وفيما رفع الرجال الثلاثة الجرّة الممتلئة عسلاً بعناية فائقة إلى أعلى الجرف، نزل الصياد عن سلّم الحبال برشاقة تثير الإعجاب. وحين وصل عند قدم الصخرة، نزع الشبك الذي يحمي وجهه. فاكتشف أورليان روشفير بدهشةً أنّ صيّاد العسل كان امرأة.

نظرت نحوه، لقد كانت جميلة. رفعتِ لباسها الواقي من وخز النحل. وفجأةً أصبحت عاريةً، لا شيء يغطّي جسدها سوى مثلّث ذهبيّ.

أغرقت يدها بالجرّة وسحقت بين أصابعها قطعة شمع لتخرج العسل. وضعت يدها على فمها ببطء ليس له حدود. رأى أورليان الذّهب يسيل على بشرتها فارتعش من اللذّة.

وقفت الفتاة بعدها تحت خيط رفيع من الماء يسيل على طول الجدران لتبرّد نفسها. ثمّ اقتربت من أورليان، وأخذته من يده، ودون أن تنبس بكلمة أوصلته إلى القرية.

- أتيت أبحث عن الذّهب، قال أورليان.

لكنّ الفتاة لم تكن تفهم أياً من كلماته الغريبة، كانت تضحك كلّما فتح فمه ونطق بالفرنسيّة.

لم تكن القرية أكثر من مخيّم مؤقت. يقع عند حاجز الصخور على حافّة الهاوية، في نهاية السهل من جهة الجنوب، بمكان إذا أردت أن تطلّ عليه، ينبغي أن تنحني بشكل خطر فوق الهاوية. اكتشف أورليان أنّ هذا القوم الفريد من نوعه قد بنى مساكنه على شكل خليّةً. أكواخ متلاصقة من القشّ، كأنّها مقابس. وفي الوسط، كان كوخ الملكة: المرأة ذات البشرة الذهبيّة، والتي صادفها في قصر راس ماكونين. وضعوه في هذا الكوخ بانتظار قدومها. لاحظ أورليان على الفور أنّها تقوم بدور هامّ في القبيلة وأنّ الرجال والنساء يأتمرون بإمرتها.

حين دخلت بدورها، ورأت أورليان متربّعاً على الأرض، وسط الكوخ، تفحّصته مطوّلاً، ثمّ وقفت أمامه وصفّقت بيديها. وعلى الفور دخل رجال يحملون سلّة كبيرة عامرةً بالفاكهة، وإبريق ماء وجرّة عسل.

عندئذ أخذت قطعة فاكهة بيدها، وغمستها بالعسل، وبشهوانيّة مربكة، وضعتها على شفتيها. سالت قطرة عسل من فمها على عنقها، ببطء لا مثيل له، وانزلقت فوق نهدها العاري.

بلع ريقه ثلاثاً، دون أن يحيد بنظرته عن قطرة العسل. ولمّا رفع رأسه، مذهولاً، رأى عينين سوداوين غارقتين بلذّة في عينيه.

منحته المرأة ابتسامة واسعة، وأخذت قطعة فاكهة أخرى، وغمستها بالعسل، ووضعتها هذه المرّة في فم الغريب. أسلم نفسه لها كطفل.

حين عضّ لبّ الفاكهة، دون أن يفكّ أواصر النظرة التي شعر أنّه يتأمّل كلّ سعة الشمس فيها، اجتاحت جسده نعومة غريبة.

في المساء أقامت القبيلة احتفالاً على شرفه. قُدّم له طبق من الفاكهة مع رحيق وهلام ملكيّ. بدأت أوركسترا الطبول تقرع إيقاعاً فاتناً، وأخذت النساء يرقصن حول النار.

حضرت الملكة الاحتفال بصمت، وكانت ترافق الموسيقى بيدها أحياناً، متربّعة أمام النار، على يمين أورليان، وهي تنظر باستقامة. أكلوا دون أن يتبادلوا نظرة واحدة. وبعد الطعام، أخذت الملكة الغريب من يده وأدخلته إلى كوخها.

في تلك الليلة، وبينما الحفل متواصل في الخارج، طارحته الحبّ بغرابة وهوس.

كانت تلتهمه بعينيها السوداوين، دون التوقّف عن المطارحة.

ودون أن يرى شيئاً أبداً غير هاتين الشعلتين تتّقدان في الحلكة، ترك أورليان لنفسه أن تأخذ بتمهّل من روعة أنّه يحيا.

عند الصباح، استيقظ أورليان كالخارج من حلم أكثر روعة من أن تثقبه إبر الواقع الصغيرة.

فرك عينيه، مذهولاً، وتذكّر. عدّل من جلسته على الفراش ونظر حوله. لم تكن ذات البشرة الذهبيّة إلى جانبه.

خرج من الكوخ. كانت الشمس عالية في السماء والقرية ترزح تحت صمت ثقيل. لقد كان وحيداً.

ركض باتّجاه الجرف غير أنّه لم يجد إلّا مئات من طوائف النحل العملاقة تواصل بصبر لا يهين جني الرحيق وتجميع العسل على الصخرة السوداء. لقد اختفى أهل القرية واختفت الملكة معهم.

رضخ للأمر الواقع: فقد تخلّت عنه ذات البشرة الذهبيّة بعد النكاح الملكيّ.

وجد أورليان عند عودته إلى الكوخ جوهرة غريبة قد وضعت على حقيبة سفره.

نحلة من ذهب. منحوتة في شذرة. وضعها على راحة يده، وحدّق فيها مطوّلاً ثم دسّها في جيب قميصه.

تأمّل للمرّة الأخيرة القرية الصامتة والمقفرة، وأخيراً أصبح جاهزاً للرجوع إلى الواقع، ثَقَبَ الفُقاعة التي حلّت مكان الحلم.

مضت أسابيع طويلة، وروشفير يجوب سهول الحبشة العالية بحثاً عن قبيلة النحل وامرأة الغالا. دون أن يعثر عليها أبداً، لا هي ولا أيّة نحلة. ولا حتى الذّهب الذي كان يفتّش عنه. رغم أنّ في داخله كان محفوراً إلى الأبد، المذاق الغريب للبشرة النحاسيّة التي لوّحتها الشمس، والمشهد الذي استحوذ عليه: قطرةُ العسل وهي تنزلق ببطء على ثدي بلون الذّهب.

عاد أورليان روشفير إلى هراري واتّجه مباشرة إلى قصر ماكونين. حين مَثُل أمامه، لم يستطع ماكونين إخفاء دهشته.

أمر أفراد حاشيته بمغادرة القاعة، وإغلاق الأبواب وطلب من الشاب أن يجلس أمامه. سأله روشفير مباشرة السؤال الذي يحرق شفتيه:

– أين هي؟

– لم أتخيل أنّك ستعود حيّاً.

صمت.

– لقد تمكّنتَ من مقابلتها ومضاجعتها، رأيت ذلك في عينيك. رأيته في ذات اللحظة التي دخلت فيها هذه القاعة.

– أين هي، الآن؟ كرّر أورليان.

– لا أحد يمكنه أن يعلم. يقال إنّه يستحيل العثور على هذه القبيلة معظم الأوقات. تجدها مرّة واحدة في ذات الوقت من العام، تذهب إلى الجرف لتقطف العسل. ثم تختفي.

صمت آخر، وأطول.

– لو استطعت، لعدت إلى هناك.

– لا، قال ماكونين، لأنّ المرأة ذات البشرة الذهبيّة لا تمنح عشّاقها إلّا ليلةً واحدةً. من يتقاسم معها الفراش أكثر من مرّة يكون قد حكم على نفسه بالموت.

لم يشعر بالخوف. لكنّه أدرك أنّ ماكونين ينطق بالحقيقة. وقال في قرارته، ربّما تكون الملكة، حين بادرت بالرحيل أولاً، قد أنقذت حياته.

– هل لديك النحلة الذهبيّة؟

أخرجها أورليان من جيبه وأراها له.

عبرت لحظة صمت طويلة بينهما، كما لو أنّه لم يعد لديهما ما يقال.

نهض أورليان وتهيّأ لمغادرة القاعة.

– لن تتمكن يوماً من نسيان هذه المرأة، قال الحبشيّ.

هذه المرّة، لم يلتفت أورليان.



الفصل الثاني

عند بزوغ شمس حمراء، دخلتِ قافلة مدينة عدن. وكان بين المسافرين رجل يدعى أورليان روشفير، كان قد أمضى أشهراً طويلة في صحراء الحبشة.

بدا لون بشرته، وإن كانت مغطّاة بطبقة رقيقة من الغبار، نحاسيّاً مثل العسل.

ترك القافلة ومضى باتّجاه البئر حيث شرب مطوّلاً ماء معطّراً بقشور البرتقال المرّة. في برودة الفجر، نظر إلى النجوم تنطفئ واحدة تلو الأخرى في سماء الشرق. كان قد اجتاز مئات الكيلومترات قبل أن يعود إلى هنا، إلى عدن، وهذه الرحلة الطويلة كانت قد أنهكته. فرش حصيراً على الرمل، وغفا في ظلّ نخلة متهالكاً من التعب.

حين استيقظ كانت الشمس في أوجها. وحول البئر ثمّة نساء محجّبات ينتشلن الماء ويلاحقنه بنظراتهنّ. حيّاهنّ أورليان وسألهنّ عن الحيّ الإنكليزي. كان يريد التحدّث إلى القنصل البريطاني. تكلّم بلغتهنّ، لكن أيّاً من النساء لم تجب. اكتفت بعضهنّ بالابتسام، أما الأخريات فأخذن يقهقهنّ من الضحك وهنّ يشرن إليه بالإصبع كأنّه حيوان غريب. بلباسه الملتصق عليه من العرق، وتحت قناعه الرمليّ، ظنّنّ أنّه شحاذ. غير أنّ أصغرهنّ، تعرّفت على وجهه الأوربي. فدنت منه وأخبرته:

– الرجل الذي تبحث عنه يقيم عند الباب الجنوبيّ للمدينة. يقع

مكتبه في مبنى أبيض. لكنّك لا تستطيع مقابلة القنصل وأنت بهذه الهيئة.

كانت الفتاة تحمل جرّة كبيرة من الفخّار. سكبت منها بتمهّل على شعر الغريب. سال الماء الثمين على جسده وارتعش أورليان من النشوة. حين فرغت الجرّة، استدار أورليان باتّجاهها وقال ببساطة:

– شكراً.

ثمّ فتّش حقيبته وأخرج منها علبة الفضّة التي قدّمها له ماكونين، العلبة التي تحتوي على النحلات الثلاث. وقدّم واحدة للفتاة. نظرت إليه بعينين مذهولتين.

– هذه الجوهرة لك. ستجلب لك الحظّ.

– الاستعلام عن مكان لا يساوي هكذا ثمن. لا يمكنني قبول هذا الكنز.

أرادت إعادتها له لكن أورليان أطبَق يد الفتاة على النحلة.

– لم يكن مجرّد استعلام. قدّمت لي الماء حين كنت عطشاً، وأكثر من ذلك، وجّهت لي الكلام فيما صمتت الأخريات.

أخفضت الفتاة بصرها على المعدن الذي كان يبرق في جوف يدها. ثمّ تفرّست في وجه الغريب وسألت:

– من أنت؟ ومن أين أتيت؟

تنهّد أورليان. كان شعره الأشقر ما يزال رطباً بقطرات صغيرة باردة، أشدّ لمعاناً من الشمس. همس، بقلب ثقيل:

- إنّي حلم. وأتيت من حلم.

ولاذ بصمت طويل، قبل أن يضيف:

- حلم ما عدت أمتلك مفتاحه.

مضى أورليان باتّجاه الباب الجنوبي. سار لفترة طويلة في الشوارع الصغيرة الضيّقة قبل أن يجد طريقه. لا أحد كان ينظر إليه. تعرّض للدفع مرّتين أو ثلاث، دون أن يرفع أحد بصره إليه. لقد أصبح بالنسبة للآخرين كائناً غير مرئيّ.

في مبنى القنصليّة البريطانيّة، طلب إذناً بالمقابلة. تركه مستخدم عجوز ببشرة أبنوسيّة متفحّمة ينتظر في غرفة مفتوحة مشربيّاتها المطلّة على الشارع. أصوات المدينة كانت تصل مثل غناء يصمّ الأذنين بفعل الحرارة التي لا هوادة فيها وهي ترتفع من الأرض إلى السماء. حين استقبله القنصل في مكتبه حيث كانت تحوم ذبابات الذراح، فوجئ القنصل بيفاعته وبالهالة التي كانت تشعّ منه. ماذا يفعل هذا الشاب التائه في عدن، بل بالأحرى ماذا يفعل بمفرده؟ لقد أدرك من نظرته الشاردة أنّه قد جاب أفريقيا ومنذ مدّة طويلةً.

– عذراً أيّها السيد، لا أعرف إن كنت أستطيع السماح لنفسي بسؤالك، من أين أتيت؟

– أتيت من الحبشة. من مدينة هراري على وجه الدقة.

اجتاحت القنصل رعشة رعب. فهذا الشاب قادم من بقعة لا ترحّب بالغرباء، وأكثر المستكشفين جرأةً وشجاعة لم يكونوا ليغامروا بالذهاب إليها إلا مجازفين بحياتهم.

– هراري مكان خطير، طريقها طويل ومحفوف بالمخاطر، يتوه المرء فيها ببساطة، وغالباً يموت أو لا يعود منها كاملاً أبداً.

– أعرف كلّ هذا. لزمني ثلاث سنوات لأترك الحبشة.

– ثلاث سنوات في الحبشة؟ أعترف أنّ لديّ صعوبة في تصديقك.

– رغم أنّ هذه هي الحقيقة.

– وماذا فعلت خلال هذه السنوات؟

– حلماً.

ببطء شديد مسح أورليان العرق عن جبهته ومسّد عنقه. الحرارة خانقة. لم يكن القنصل يعلم إذا كان هذا الرجل ينطق بالحقيقة. كانت حركات المسافر تشي بإنهاك شديد.

– وغير هذا الحلم، عمّ كنت تبحث في تلك المنطقة؟

بقي أورليان ساكتاً. فيما كان القنصل يبالغ بتطفّله.

– لا تؤاخذ فضولي، ولكنّك شديد الغموض.

– كنت أبحث عن الذّهب.

جاب القنصل غرفته بخطوات واسعة. وتأمّل من النافذة عدن المدينة المقلقة. ثمّ استدار باتّجاه أورليان وقال له:

– إمّا أنّك كنت تبحث عن الذّهب، أو عن نفسك.

ثم أضاف بشيء من التردّد:

– وأنا متأكّد، كما أراك، أنّك لم تجد أيّاً من الاثنين.

فهم أورليان أن لا طائل من رواية حكايته لهذا الرجل. فماذا يستطيع أن يعرف عن الحبشة وفتاة الغالا، هو الذي يتعفّن في مكتبه ويتقطّر منه سأم الحياة؟ ماذا يستطيع أن يعرف عن جرف النحل وثلاث سنوات لحقته من التوهان. اختار أن يصمت وبإيماءة خفيفة برأسه وافق على كلّ ما قاله القنصل.

– أنت لست الأوّل. كثيرون مثلك مرّوا من هنا، مسافرو المطلق، أولئك الباحثون عن الذّهب، وهم بالفعل لا يبحثون عن أكثر من سبب لحياتهم. أعرفهم من النظرة الأولى. يعودون أكثر فقراً من قبل، متخفّفين من أوهامهم. والآن، ما الذي يمكنني فعله من أجلك أيّها السيد؟

بعد برهة. رفرفت، مثل فراشات الليل، رموش الشاب المبتلّة بالضوء.

– ربّما تساعدني على العودة إلى دياري.

في طريق العودة، على متن السفينة التي تربط عدن بمرسيليا، أصيب أورليان بالزّحار. عانى الكثير، فالرحلة لم تكن له غير ألم طويل نجا منه بأعجوبة.

عزاؤه الوحيد خلال هذه الرحلة كان لقاؤه برجل مفرط الغرابة، يتمتّع ببلاغة نادرة، وجنون خاص. يدعى هذا الرجل إيبوليت لوازول. كان يعمل مهندساً في مشروعات كبيرة في أفريقيا. عمل لصالح الحكومة، ولصالح باي تونس، ولصالح الإنسانيّة جمعاء.

مثل رسّام آرل، كان إيبوليت رجلاً فريداً. لو طُلب من أورليان أن يختار لوناً واحداً لرسم هذه الشخصيّة، لوقع بإرباك كبير.

حين كان يضحك، كان الزجاج يهتزّ. وحين يدخّن، يبدو كسائر في ضباب لا يوصف. وحين يتكلّم، يتكلّم بصوت عال وقويّ، والأهمّ أنّه كان يتحدّث بأمور شتّى.

طوال أيّام عذاب أورليان، بقي إيبوليت عند سريره يحكي له عن أسفاره ومشاريعه، وعن جنونه أيضاً.

كان أورليان يستمع بصمت؛ وليتخيّل بشكل أفضل، كان يغلق عينيه ويترك نفسه تتهدهد بصوت هذا الرجل.

- حقّاً، كان يقول، كنت ملكاً هناك في أفريقيا. وأنشأت أوّل طريق يصل قرطاج بالصحراء. وعرفت ألف امرأة.

- أنا لم أعرف إلّا واحدة، غير أنّ لها بشرة نحاسيّة مثل العسل. وكانت تحكم النحل.

كان أورليان قد فضح سرّه للتوّ. ولكن امرأة الغالا أصبحت منذ الآن فصاعداً بعيدة جداً، ولو سمعته اليوم، من المؤكّد أنّها لن تلومه. أخرج نحلتي الذهب ووضعهما أمام المهندس لوازول، الذي بدوره صمت فجأةً. ثمّ على مهل، أشعل سيجاراً وقال:

- قصّ عليّ حكايتها. وحكاية النحل.

حين أنهى أورليان سرد حكايته، شعر الرجلان بصداقة نادرة وثمينة ولدت بينهما في الحال.

– إنّها حكاية جميلة. حكاية جميلة جداً، قال إيبوليت.

– منذ ذلك الوقت، وأنا أحلم بهذه المرأة. ولا أعرف كيف أستطيع العودة للقائها، ولا كيف أنساها.

فكّر المهندس مطوّلاً قبل أن يقول:

– لا ينبغي أن تنسى شيئاً أبداً. تعال لرؤيتي في باريس. سأكلّمك في أمر قد يساعدك على مواصلة حلمك.

– لا أعرف إذا كنت سأملك القوّة للسفر إلى باريس.

– إذن، أنا من سيلقاك في لانغلاد. وبأقرب وقت ممكن. لأنّ المرء حين يُسكن بحلم مثل حلمك، عليه التعجيل بتحقيقه قبل أن تسرقه الحياة.

في شهر أيلول سنة ١٨٩١، نزل أورليان في مرسيليا ونُقل إلى مستشفى لاكونسبيسيون في حالة طارئة.

زاره إيبوليت لوازول في اليوم نفسه، إلّا أنّ أعماله استدعت أن يلتحق بباريس على وجه السرعة.

– ستنهض على قدميك بعد خمسة عشر يوماً، هكذا تنبّأ لأورليان عند الوداع.

في واقع الأمر استغرق شفاء روشفير شهرين. شهرين من الألم والسأم حاول خلالهما فهم المغزى الذي تنطوي عليه حياته.

حين تعافى بالقدر الذي يمكّنه من المشي، بدأ يتجوّل في ممرّات المستشفى محاولاً قتل الوقت الذي جعله سجيناً. في الغرفة المجاورة، كان هناك رجل قد بترت رجله، يهذي عن إفريقيا، وعن الصحراء والحبشة. وحول خصره حزام مليء بالذّهب.

– الإفرنجيّ! صرخ أورليان وهو يندفع نحوه. ألا تذكرني؟

لكن لم يبدُ على الرجل، بعينيه الجامدتين، أنّه تعرف إليه.

– من أنت؟ سأل الرجل بنظرة مجنونة.

– أورليان روشفير. تقاسمت معك الطريق، هناك، في الحبشة. ألا تتذكّرني؟

– بلى. ربّما. ما عدت أعرف.

لم يكن الإفرنجي يتذكّر شيئاً و لم يعد مكترثاً بشيء. لا موته القريب ولا موت الآخرين.

قبل أن يموت، أعطى لأورليان ديوان شعر صغير مكتوب بخطّ يده.

– خذ، هذا كل ما بقي لي. كل ما تبقّي مني.

بنهم قرأ أورليان القصائد. ثم قال، متأثراً حتّى الدموع:

– جميل. جميل جداً.

أكمل الإفرنجي:

– غُسالات. ليست سوى غُسالات. لكنّها تفسّر ما تبقى، تفسّر كل هذا البؤس.

سأله أورليان سؤالاً أخيراً:

– هل عَرفتَ السعادة؟

لكنّه لم يحصل على جواب.

في طريق عودته، توقف أورليان روشفير في آرل، في فندق كاريل، في ٣٠ شارع كافلري.

سأل عن أخبار الرسّام. الرجل الذي قابله قبل ثلاث سنوات ورسم له بورتريه المرأة ذات البشرة الذهبيّة مقابل زجاجة من روح الخزامى.

أجابوه بأنّ الرسّام قد غادر منذ وقت طويل، وأنّه على الأغلب طار مع العطر، لكنّ اللوحة التي رسمها ذلك اليوم مازالت موجودةً في العلّية.

– هل أستطيع رؤيتها؟ سأل أورليان. واسكب لي كأس ابسانت. منذ ثلاث سنوات وأنا أحلم بها.

– بأن تعود لترى اللوحة أم لتشرب كأس الأبسانت؟ سأل صاحب النُّزل.

– بالاثنين معاً.

أرسل زوجته لتحضر اللوحة وصبّ الأبسانت. كأس، ثم أخرى، وهو يفكّر أنّه لابدّ أن أورليان عطش جداً بعد كلّ هذه المدّة.

عادت المرأة وبيدها اللوحة الصغيرة، بصفرتها الذهبيّة مع شيء من الزرقة للشمس. تأمّل اللوحة وأدرك أنّه أمام تحفة فنيّة.

– إنّها هي. وهذه اللوحة هي صِورتها بالضبط. بلا أدنى شك، كان هذا الرجل عبقريّاً.

ودون أن يرفع رأسه، سأل أورليان صاحب الفندق:

– وهل تعرف ما هي أخبار الرسّام؟

هزّ الرجل كتفيه وهو يمسح المنضدة.

– من أين لي أن أعرف. ذهب كما أتى. ربّما مات. لا شأن لي بذلك.

سدّد أورليان ثمن الكأسين وتهيّأ للمغادرة. وقبل أن يضع اللوحة في حقيبته، تأمّلها للمرة الأخيرة. المرأة ذات البشرة الذهبية.

تحفة فنيّة. تحفة حقيقيّة، كرّر مبهوراً.

وقبل أن يغادر المقهى، سأل أورليان للمرّة الأخيرة:

– هل عَرفَ السعادة؟

ولكنّه، هذه المرّة، لم ينتظر جواباً.

- لحسن الحظّ، أنّك لم تجد ذهباً! ها أنت أخيراً قد رجعت!

كان هذا صوت ليوبولد وهو يستقبل المسافر. وصله تلغراف من مرسيليا وقد أتى إلى محطّة آرل ليحضر أورليان. كان يقف على الرصيف، مستنداً إلى عكّازه، وفي يده خصلة خزامى.

ارتمى أورليان بين يديه وعانقه بشوق. أخذ خصلة الخزامى وشمّها بعمق.

- لم أنسَ هذا العطر يوماً.

- كيف يمكن نسيانه؟ قال ليوبولد.

وضع الشاب خصلة الخزامى في محفظته، ووضع يده على كتف جدّه وبادره بابتسامة واسعة.

لدى وصوله إلى لانغلاد، استقبله كلوفيس بصرخات السعادة.

- أخيراً! عاد المسافر!

بعد عناقات طويلة سكب خلالها كلوفيس الكثير من الدموع والأبسانت، أخذ ليوبولد وأورليان طريق المزرعة.

- في النهاية، كلّ هذه الرحلة، كانت دون جدوى؟

- ليس تماماً يا جدي، ليس تماماً، بقي لي عطور وصور وذكريات.

- وماذا عملت طوال هذه المدّة؟

- كبرت.

بعد برهةٍ.

- وجلبت هذا.

ووضع أمامه العلبة الصغيرة التي تحتوي على النحلتين الذهبيّتين.

- ما هذه؟

- الثروة التي كنت أبحث عنها.

- لديّ مشروع.

- إنّها المرّة الثانية التي تقول لي فيها نفس الكلام. وقد كانت النتيجة سيّئة في المرّة الأولى.

لم يجب أورليان. نظر إلى جدّه وابتسم.

- وهنا، كيف تمضي الحياة؟

- تعرف كيف يمضي الوقت في القرية، لم يطرأ أيّ تغيّر يذكر منذ ذهابك. الوقت هنا أبطأ من أيّ مكان آخر. كما لو أنّ الساعة الرمليّة سدّت بحبة أكبر من مثيلاتها مانعةً الوقت من تسرّبه الطبيعيّ.

- حبّة رمل كبيرة تشبه شذرةً؟ سأل أورليان.

- لماذا، هل عثرت على الذهب؟

- أبداً ولكن استغرقت في التفكير.

- هل ستعود للاستثمار في المزرعة؟

صمت أورليان للحظة قبل أن يجيب.

- بلى. لكن بطريقتي. سأعود للعمل كنحّال.

- بعد كل ما حدث؟ هذا جنون!

- أصغ إليّ، في المرّة الأولى، لم أكن أعرف أيّ طريق اتبع. أمّا الآن فأعرف. إنّي قادم من إفريقيا وأدعى أورليان روشفير. فاتركني أتصرف، وسوف تفهم لاحقاً. المهمّ، أنّي رجعت لأحقّق أشياء كبيرةً.

- أتعلم ماذا سأفعل هنا؟

- لا.

- مشروعاً رائعاً.

في اليوم الثاني، قابل بولين.

– عدتَ، قالتها ببساطة، كأنّه غادر بالأمس.

– بلى. عدت، لأجل النحل.

أراها النحلتين الذهبيّتين وشرح لها مشروعه.

عضّت بولين على شفتها، وبدت على أهبة البكاء غير أنّه لم يلحظ شيئاً.

– سأعود وأبدأ المشروع من البداية. ولكن هذه المرّة، سيدهش الجميع. لفرط جماله أنت نفسك لن تصدّقي.

أظلم وجه بولين، واكتست ملامحه غمّاً مشوباً بالخيبة.

– أتعرفين، لقد عشت هناك تجربةً رائعةً.

– أنا سعيدة لأجلك.

أدارت بولين رأسها لتداري انفعالها. ثمّ أضافت، وهي ترتجف:

– ينبغي أن تكون جميلةً جداً، امرأة أحلامك!

ثمّ ذهبت تحضر الظرف من بين زجاجات الخزامى وسلّمته لأورليان.

- أعتقد أنّ من الأفضل أن أعيده لك.

- لماذا؟ ألم تكن رسالة حبّ جميلة؟

تنهّدت بولين:

- بلى. جميلة جداً. لكنّها ليست موجّهةً إليّ.

في لانغلاد، عاد أورليان وأصبح نحّالاً من جديد، بدأ بثلاثين قفير نحل تقريباً، منحها العناية الفائقة. كان قطاف عام ١٨٩٢ جيداً، وشيئاً فشيئاً عاد النحّال مرّة أخرى يستمتع بولعه الأوّل.

نزل الثلج ودخل النحل في سباته محصّناً جيداً داخل قفرانه. وبقي على الرفوف ما يكفي من العسل حتى قدوم طلائع الزهور.

ذات صباح، بينما كان أورليان يغذّي نحله، أتى ليوبولد لزيارته. جلس على أرومة شجرة مغطّاة بالثلج، وسأله وهو ينزع قبّعته:

– ماذا حدث، هناك في إفريقيا؟

تظاهر أورليان أنّه لم يسمع.

– أخبرني ماذا حدث هناك؟

– لاشيء يثير الاهتمام. بحثت عن الذّهب، ووجدت العسل. هذا كلّ شيء.

– أنا لا أكلّمك عن العسل، بل عن الحبّ. لقد تعرفت على امرأة، أنا متأكّد من ذلك!

استدار النحّال صوب جدّه.

- من حدّثك عن امرأة؟

- لا أحد، ولست أنت على الأخصّ. لذلك عرفت.

بدت الحياة هانئةً للنحّال ذلك الشتاء. أمضى أياماً هادئة بانتظار الربيع.

عند قدوم الأيّامِ المشمسة، بدأ أورليان يهيّئ نفسه للموسم الثاني. كان سعيداً، سعيداً ومطمئناً. في الحقيقة، كان في بدايات مشروعه، و لم يكن ينتظر إلّا رسالة ليبدأ كلّ شيء بالفعل.

رسالة موقّعة من إيبوليت لوازول.

وأخيراً، في أحد أيّام نيسان سنة ١٨٩٣، استلم هذه الرسالة. عند الظهيرة، وبعد أن زار قفرانه، مضى أورليان إلى كلوفيس ليطفئ ظمأه.

هناك عثر عليه ساعي البريد، جالساً في الشمس، بصحبة كلوفيس وكأسيّ أبسانت.

– مع إضافةِ قليل من الماء لتعكير الأبسانت، كان يكرّر كلوفيس مع كلّ كأس.

سلّم ساعي البريد رسالة إيبوليت لوازول إلى أورليان.

وصلت هذه الرسالة كأنَّ الصيف عاد قبل أوانه. رسالة معطّرة بسعادة الحياة. تعلن عن قدوم المهندس في أوّل أيّار.

يوم عيد الزهور.

– وكيف هو مهندسك هذا؟

– متفرّدٌ.

– وماذا أيضاً؟

– هو لن يأتي بمفرده. سيجلب معه ما ينقصني.

حكّ كلوفيس رأسه ونظر إلى أورليان بدهشة.

– سيحضر معه امرأة؟

– لا. سيحضر مالاً.

كان إيبوليت لوازول مهندساً، غير أن سعة معرفته وشدّة فضوله جعلا اهتمامه منصبّاً على كل عجائب الطبيعة. وبالأخصّ غشائيات الأجنحة، والنحل بالذات لاسيما نحل العسل الغربيّ Apis mellifica. لكن ميزته الأهمّ، أنّه لا ينسَ أصدقاءه أبداً.

وصل لانغلاد كما هو متوقّع في أوّل صباح من أيّار سنة ١٨٩٣. كان أورليان مشغولاً بالعناية بقفرانه، مما جعل ليوبولد هو من يتكفّل باستقباله.

– ماذا كنت تعمل في إفريقيا؟ سأل العجوز الرجل البدين الجالس أمامه، على شرفة (الحانة الخضراء)، والذي كان يدخّن سيجاراً ضخماً من الذي لا نجده إلّا في هافانا.

– مثل حفيدك.

– تبحث عن الذّهب؟

– بإمكاننا أن نقول هذا. لكن أنا وجدته! صرخ لوازول.

وأخذ نفساً طويلاً من سيجارته ونفخ بقوّةٍ الدخان الأبيض الذي تبدّد بين أوراق الزيتون.

– تريد أن تعرف كيف؟

أومأ ليوبولد بحركة خفيفة لتشجيعه على المواصلة.

– بتحقيق الأحلام.

– أحلام؟

– بلى، ببساطة. كلّ الناس لديها أحلام سريّة، لكنّهم في معظم الأحيان لا يجرؤون على تحقيقها. وهنا يتدخل إيبوليت لوازول. هل تعرف، ما فائدة أن تحقّق أحلام الآخرين؟

– لا أعرف... تقرّب بين الناس؟

– لا. تربح ذهباً.

صمت طويل.

– وماذا تريد من أورليان؟

– مساعدته.

– بأيّة طريقة؟

– في أوّل لقاء لنا، أخبرني عن مشاريعه كنحّال، وما عاشه هناك، في أفريقيا. والآن أتيت بدوري لأخبره عن النحل. وعلى وجه الخصوص، قالها وهو يوجّه سيجارته تحت أنف ليوبولد، لأساعده أن يجد الذّهب الذي يبحث عنه، بإنجاز مشروعات كبيرة.

– وما هي، هذه المشروعات الكبيرة؟

– ليس لديك أيّة فكرة؟

– لا.

ضحك إيبوليت لوازول ضحكةً جعلت الكؤوس تهتزّ فوق الطاولة. وحينها، صرخ فاتحاً يديه كأنّه يريد أن يعانق السماء، الحقول التي حوله، وزاغت عيناه الكبيرتان المجنونتان، عيناه المنهوبتان بكلّ شموس أفريقيا:

– سأساعده على تأسيس أبيبوليس! على تأسيس مدينة النحل!

فقد كان لدى هذا الرجل، لأجل نحل أورليان، كما لأجل أفريقيا، كما لأجل حياته، كما لأجل أيّ شيء يفعله، مشروعات ضخمة، وهائلة.

في الحقيقة، كان إيبوليت لوازول منهوباً بمطمح سرّيّ: كان يريد أن يكون مشهوراً. لديه رغبة أن يصل اسمه إلى الأجيال القادمة. حين ينام في الليل، كان يحلم بتمثاله على واجهة دار البلديّة في باريس. ومكتوب أسفله:

إلى المهندس

إيبوليت لوازول

الوطن المعترف بجميله

وأخيراً كان المهندس مستعداً لمنح الحياة لهذا الحلم السرّيّ.

في المساء ذاته، نزل إيبوليت لوازول في فندق (الحانة الخضراء)، حيث استأجر غرفة في الطابق الأوّل.

– ليست خضراء، لكنّها الوحيدة الشاغرة، قال كلوفيس.

كانت جدرانها زرقاء وستائرها بلون الخزامى. تأقلم إيبوليت معها بسرعة لدرجة أنّ غطيطه أخذ يتردّد خلال وقت قصير في الفندق بأكمله.

في اليوم الثاني، عند الفجر، تناول إفطاره في شرفة المقهى، أمام رضا كلوفيس الكبير ورعب زوجته؛ كأس من عصير البرتقال، ثلاثة فناجين من الشاي الساخن، وسبع شرائح من الخبز المغطى بالعسل، وأربع بيضات ومطربان كامل من المربى.

– هذا يقال عنه زبون جيّد!

بعد أن امتلأت معدته، وضع قبّعة من القشّ على رأسه، أخذ عكّازه، وأشعل سيجاراً ضخماً، ثم مضى باتّجاه مزرعة آل روشفير.

- وكيف سنبدأ بإنشاء أبيبوليس؟

- نسترشد بهذا!

نظر أورليان بدهشة إلى المرجع الذي كان يمسكه بيده.

- كتاب؟

- نعم أورليان، الكتاب الذي سيصنع ثروتك. لا تنس هذا: كما تأتي الأحلام من الكتب، فإنّ الكتب جميعها بالمقابل، تأتي من الأحلام.

لم يأت إيبوليت إلى لانغلاد بفكرة مجنونة فقط عن إنشاء مدينة خارقة للعادة، يعيش فيها الملايين من النحل، تتنقّل بين أجمل أزاهير فرنسا وينتجون أطيب عسل خزامى في العالم: لقد أتى مع كتاب كامل عن المشروع، بمخطّطات، وتعليقات تقنيّة، وحسابات تقديريّة وخطط متنوعة مع شروح عن التطبيقات والشكل الأمثل لتحقيق حلم بضخامة أبيبوليس.

- ومن الذي ألّفَ الكتاب؟ سأل أورليان.

نفش إيبوليت نفسه ووضع يده على صدره:

- أنا بالطبع! من تريده أن يكون؟

بالإضافة إلى مهنة إيبوليت لوازول كمهندس، كان عالم نبات

أيضاً، وجيولوجي، وعالم رياضيات، كاتب وله اطلاع واسع في شتّى عجائب هذه الدنيا. عندما يجد موضوعاً له قدر من الجاذبيّة، كان ينكبّ عليه ويدرسه دراسة شاملة، مستنفداً مخزون المكتبات، مجرياً لقاءات مع أشهر علماء العالم في هذا المجال، وأمهر المختصّين الذين يفتحون أمامه طريق المعرفة، وبعد فترة طويلة من الزمن تتأرجح من شهر إلى عدّة أعوام من العمل المجنون، كان يبدأ بتأليف كتاب عن الموضوع المختار، حتّى ولو أنّ الكتاب نادراً ما كان يحظى بأهميّة في اختصاصه، إلّا أنّه يحظى بأهميّة خاصّة بالنسبة له.

تصفّح أورليان الكتاب وقرأ بذهول توقّعات لوازول للعام الأوّل من إنتاج العسل لمدينة مثل أبيبوليس، إذ سيزيد على عشرين ألف كيلو من العسل، وبحسم الإنفاق والرواتب سيبلغ الربح الصافي ثلاثين ألف فرنك ذهبيّ.

– ولكن، كيف بإمكاننا الوصول إلى هذا العدد الهائل مع قفراني السبعة والثلاثين؟

– أولاً، أجاب إيبوليت، لن يكون العدد سبعة وثلاثون قفيراً، وإنّما ألف! وأكثر ما يلزم هو جرف فيه جيوب، كما في إفريقيا! وألف ملكة! وعشرة موظفين لقطاف العسل!

– ولكن تكلفة كهذه ستكون باهظة جداً!

– بلى، لكنّها ضرورية.

– والأموال التي سنحتاجها لكلّ هذا؟ صرخ أورليان. ومئات الألوف من النحل لتنتج كلّ هذا العسل، أين ستجدها؟

أخرج إيبوليت صرّة كبيرة من جيبه وقال، وهو يفتحها:

- في يدي.

كان يوجد في داخلها عشرة آلاف فرنك ذهبيّ.

- ما يكفي لنستمرّ موسمين متتاليين، قال إيبوليت.

في الواقع، بقي هذا المال مع إيبوليت لوازول أقلّ من ثلاثة أشهر. فإذا كانا لوازول وأورليان، مع أحلامهما وجنونهما بشراً، وبشراً جداً، تبيّن أنّ أبيبوليس مشروع مشاد بمعايير شبه إلهية.

– يلزمنا في البداية، تحديد مكان الجرف الذي سنستثمره، قال المهندس. ثم نشكل ورشة.

– أيّة ورشة؟

– أطلق عليها الاسم الذي تريد. أبيبوليس. الجرف الجهنمي. النحل الفرعوني. ولكنها هي الورشة التي ستستمر بالعمل حتى الخريف. والتي سيُحكى عنها بعد ألف عام!

وضع يده على كتف أورليان وأضاف:

– وهكذا، سأحصل أخيراً على تمثالي!

أشيدت أبيبوليس بخبرة معلم، هو المهندس. الرجل الذي كان له مظهر معلم، وهيبة قائد للرجال، ومهارة دبلوماسي، وبراعة مايسترو.

لزم الأمر في البداية إقامة الورشة، كمسرح للعمليات، اختار لوازول جرفاً كلسيّاً شديد الانحدار، ترتفع جدرانه بعلو سبعة عشر متراً وطول ثلاثة وثلاثين متراً على مقربة من منزل آل روشفير.

– هكذا ممتاز، قال. ويوجد طريق ضيّق أيضاً للوصول إلى قمّة الصخرة.

– أتقصد أن تتسلّق إلى الأعلى؟ سأل أورليان.

– لست أنا فقط. ولكنّه يلزمنا بالتأكيد لنقل عدّة أطنان من المعدّات.

– وكيف سنفعل؟

عقد المهندس حاجبيه.

– برأيك، من يستطيع المرور من طريق ضيّق؟

استأجرا من صاحب المطحنة حمارة لنقل المعدّات. ثمّ طلبا من زوجين غجريّين قَدما من كامارغ، بضع مئات من قفران النحل مصنوعةً من فروع الصفصاف، وحبالاً وقفصاً أيضاً قادراً على حمل رجل. ومن حوذي لانغلاد، أوتاداً من حديد، ومزالق، ومسامير،

وقضبان ألغام، وصفائح حديديّة وبكرة. وأخيراً، قابل المهندس النجّار واشترى منه كميّة كبيرة من عوارض خشب الزيتون.

وبالنسبة لعمّال لانغلاد الذين وظّفوا لبناء أبيبوليس - والذين شكّكوا بإمكانيّة إنهاء هكذا مشروع قبل الخريف - مدّ لوازول بضع وريقات من فئة الألف فرنك قائلاً:

- مع قليل من المال وكثير من الإرادة، لا يوجد مستحيل!

استمرت الورشة طوال الصيف. كان يتواجد عشرة عمّال بشكل دائم، حفروا الصخر بضربات قضبان اللغم، ركّزوا الأعمدة في قمّة الجرف، وثبتوا المزالق الحديديّة على طول الصخرة، عارضين الخلايا التي من الصفصاف في الجيوب الكلسيّة. ولكن لا أثر لأيّة نحلة.

كلّما كان ليوبولد يزور النحّال في ورشة أبيبوليس، كان يتأمّل هذه الجمهرة بتحفّظ ممزوج بالسخرية. ثم ينتهي وهو يقول له، مشيراً إلى المهندس الذي كان يصارع طوال النهار ويشجّع العمّال أن يبذلوا قصارى جهدهم:

- هذا الرجل سوف يقودك إلى الإفلاس!

وفيما يخصّ هذا لم يكن مخطئاً بالكامل. ولكنّه أيضاً لم يكن على صواب بالكامل.

في صباح أحد أيّام أيلول، انتهت أبيبوليس. سرت إشاعة في كل لانغلاد أنّ المهندس والنحّال قد وصلا أخيراً لهدفهما. ومن أجل ذلك، اقترضا ديناً سيمتدّ تسديد مستحقّاته حتى القرن القادم. ذلك لم يكن صحيحاً تماماً. ولكنّه أيضاً لم يكن خطأً بالكامل.

لأنّ العشرة آلاف فرنك ذهبيّ، رأس المال الذي بدأا به لم يكن يكفي لتغطية ربع المبلغ الكامل للورشة. ولكي ينهيا أشغالهما، لزم الأمر أن يستدينا مبلغاً ضخماً من بنك آرل، وأن يَعِدا المموّلين بنسبة من ربح المنتج النهائيّ لأبيبوليس.

- إنّهم أسماك قرش، تذمّر إيبوليت، قبل أن ينتهي، مجبراً ومضطراً، إلى الموافقة على طلبهم.

- إنّها مجازفة، اعترف أورليان. لكن هذا يعجبني، وأنا معك.

ووقّع الرجلان.

ولكن في هذا الصباح من أيلول، زال جزء كبير من المجازفة. صرخ النحّال، الذي ساهم بنصيب كبير من المشروع المجنون لإيبوليت:

- لقد نجحتَ!

- ليس أنا، أجاب المهندس. كانت فكرتك. أنت المنتصر الحقيقيّ.

ابتسم الرجلان وتصافحا بتواطؤ.

– سأذهب غدا لآرل لأحضر الفراخ، قال إيبوليت وهو يتأمّل أبيبوليس، لقد طلبت من كل نحّالي المنطقة، أكثر من مئة طائفة من النحل والتي شيئاً فشيئاً، سنيتّمها لنغذي قفران أبيبوليس بأكملها. سترى عند الربيع القادم، ستكون هنا آلاف مؤلّفة من النحل. وسيكون الأمر رائعاً.

– كم ستكون تكلفة كل ذلك؟ سأل أورليان.

– ثروةً. ولكن لا يهم. يلزمنا أفضل الأفراخ.

– كم سيبقى لدينا من المال بعد أن نسدّد ثمنها.

أخرج إيبوليت من جيبه رزمةً من الأوراق النقديّة والتي كانت تنكمش مثل جلد الكآبة(٦)، وسحب الجزء الأكبر منها، وختم:

– ما يكفي لأدفع لك ثمن كأس عند كلوفيس!

٦– الإشارة من رواية بلزاك الشهيرة والتي تحمل ذات الاسم، والذي أصبح استخدامه شائعا للدلالة على كل ما ينكمش ويتضاءل.

لم يكن إيبوليت لوازول يكذب. ولمّا عاد من آرل مع العدد الكافي من فراخ النحل لدعم أبيبوليس، بدا المشهد فخماً ورائعاً بالفعل، لن ينساه أحد من سكان لانغلاد. كان يمسك زمام عربة محمّلة بمائة قفير تقريباً من الصفصاف، دخل القرية مصحوباً بهالة من النحل، غيمة تتنقّل وتئزّ وبالكاد تسمح للحشود على أطراف الطريق أن تلمح المهندس.

– سراب! صرخ أحد أبناء القرية.

كان أورليان أوّل من استقبل لوازول. حين سمع هذه الكلمة، تذكر أنّه رأى السراب سابقاً في أفريقيا.

صعد إلى العربة وأخذ الرجلان طريق بيت المزرعة، تبعهم النحل ومجموعة من الصبية جعلهم رجوع الموسم الجميل وجنون الرجلين مبتهجين على نحو خاص.

بعناية فائقة وضع أورليان وإيبوليت كلّ قفير في جيب من جيوب مدينة النحل، وعند هبوط الليل، حين عادت كلّ نحلة والتحقت بطائفتها، جلسا على حافّة البئر وتأمّلا أبيبوليس. أشعل إيبوليت لوازول سيجاره، وقال، راضياً عن النتيجة:

– الآن! لم يبق غير الانتظار بأن يتحوّل كلّ هذا إلى ذهب! سيكون الشتاء طويلاً. ولكن لا أهميّة لذلك. ستحصل عليها، مدينة نحلك!

ستكون أكثر جمالاً وضخامةً من كلّ ما رأيته في أفريقيا. جروف، ماذا أقول، جبال من العسل ستسيل فوق رؤوسنا!

– بلى، قال أورليان، وهو ينظر إلى الشمس تختفي في الأفق، كل الأشياء تبدأ دوماً في الربيع.

مضى الشتاء ببطء. لم تثلج تقريباً. كلّ صباح كان الرجلان يذهبان سيراً إلى الجرف ويراقبان بصمت. كان النحل ينام هناك في دفء أبيبوليس.

- أهمّ شيء، ألا نزعجهم، قال إيبوليت.

ثم كانا ينزلان إلى القرية ليلعبا الورق بصحبة كلوفيس.

لم يكن ليوبولد يأتي أبداً. كان يقول إنّهم مجانين وكان هذا يضحكهم.

خاصةً المهندس. وعلى الأرجح لأنّه كان يعلم في قرارة نفسه أنّه مجنون بالفعل، وكان هذا مدعاة فخره.

عندما أتى الربيع، وجب التفكير في العمل الشاق.

في صباح من نيسان، ابتدأ الحلم مع أوّل نحلة طارت من أوّل خليّة باتّجاه زهرة.

كان النحّال والمهندس قد استيقظا قبل الفجر قلقين كطفلين، كانا أمام الجرف على أهبة الاستعداد للشروع في العمل. حين رأوها خرجت وحامت في السماء، تبادلا النظرات وغشيا من الضحك.

– الثروة! صرخ إيبوليت بصوته الاستانتوري. الثروة تنتظرنا! بعد بضع دقائق، بدأت آلاف النحلات بالطّيران، وبدت السماء مظلمة من كثرة ما اكتظّت بها.

– هيا، قال إيبوليت، دعنا نذهب ونشرب كأساً عند كلوفيس. الآن، سيعمل النحل بدلاً عنّا.

في يوم تطريد النحل، ولكي يبهر ليوبولد الذي كان ينظر لكلّ ما يحدث بعين الريبة، أخذ إيبوليت لوازول ملكة، ووضعها على لحيته، وعلى الفور، التحقت بها أكثر من عشرين ألفاً من العاملات، جاعلين للمهندس لحية رائعةً من النحل. فقام بدفع الطُرفة قُدماً بأن بدأ يتجوّل في كل لانغلاد بلحيته الحيّة المرعبة والتي تئزّ.

- غريب الأطوار! قال ليوبولد.

- هذا بالضبط ما يعجبني به، أجاب أورليان.

في هذا الربيع، تنقّلت النحلات دون توقّف على أزهار لانغلاد، وهي تعزف لحناً موسيقياً معظمه بتردّد خفيض.

كان أورليان يحبّ هذه الموسيقى التي تصمّ، رغم أنّها خالية من التنقّلات، ومن الوقفات والتنهّدات. يجد فيها جمالاً كاملاً.

لكثرة ما كان يحبّ هذه الموسيقى أطلق عليها في النهاية اسم: أوبرا النحل.

أتى يوم الجني الأول.

كان يوم ابتهاج عام، وأقيم حفل حقيقيّ دعيت إليه القرية بأسرها. كان لوازول يريد أن تحضر الناس جميعها لترى برهان عبقريّته. أُجلسَ ليوبولد وكلوفيس، مثل أعضاء مجلس الشيوخ، في الصفّ الأماميّ للمشهد. وخلفهم حشد غفير، كان سكّان لانغلاد ينظرون إلى الجرف بعيون قفزت من محاجرها.

كان أورليان في أعلى الجرف، ميتاً من الذعر، متهيّئاً لتنفيذ تعليمات المهندس. وبسخاء كانت بولين مبديةً استعدادها لإكمال هذا الفريق المجنون، كانت تقف في أسفل الجرف، منتظرةً بجانب مرجل ضخم.

تنحنح المهندس وبدأ كلمته بهذه الطريقة:

– سيداتي، آنساتي، سادتي، أتمنّى أن تعيروني انتباهكم. المشهد الذي سيعرض عليكم بعد لحظات هو أوبرا تعزف في الصمت الأكثر اكتمالاً. هو عرض لمرّة واحدة، ولهذا العرض فضل الريادة في العالم. لأجل رفعة التاريخ، وجمال الحياة، وذهب العسل، من فضلكم أن تحضروا أوبرا الذّهب والصمت!

رفع المهندس يده إلى الأعلى أقصى ما يستطيع، واتّسعت حدقتاه، انتظر للحظات بدت غير نهائيّة حتّى صمت الحضور، ثمّ حين تجمّد

كلّ ما حوله بانتظار إحدى العجائب التي لا تنسى، وبحركة جافّة لا تخلو من الأناقة، أخفض يده مثل مايسترو مشيراً للأوركسترا أن تقرع أوّل إيقاعاتها. على هذا النحو بدأت الأوبرا الأكثر صمتاً في العالم.

افتتح الأداء في البداية بآلات النفخ. تحت الجرف، فتحت بولين صمّام تسريب المرجل الذي كانت تغلي به أكياس القنّب، وبدأ الدخان الناتج عن احتراق الأكياس يتوزّع بفضل شبكة من الأنابيب، على المزالق التي تغذي قفران النحل. كل هذا في صمت كليّ. مقدّمة أوبرا هادئة وبيضاء.

ثمّ أتى دور الوتريّات لتحلّ محلّها. قفز أورليان في القفص، محمياً بلباس النحّال، وأدار جهاز الرافعة اليدويّ وتزحلق على طول الصخرة. وحين صار بمستوى أوّل قفير نحل، نزع عنه الغطاء، وتناول إطار شمع مكتظّ بالنحل وسحقه بين يديه.

حينها بدأت النحاسيّات بعزف أوّل مدونة لها.

سال العسل في المزلاق الحديديّ، مثل سيل من الذّهب، مرّ بين الرقائق، وبعد عدّة أمتار إلى الأسفل، تصفّى في الشبكة، ثمّ واصل سباقة حتى منتهى الجرف.

ولا يزال كلّ ذلك يجري في الصمت الأكثر اكتمالاً. ظل كذلك حتى النوتة الأخيرة. النوتة الذهبيّة. حين سقطت أوّل قطرة عسل في العبوة الزجاجيّة.

حين أخفض المهندس كمايسترو حقيقيّ، ذراعه وثَبُتَ في جمود كامل، ضجّ انفجار من البهجة. هتف كل سكان لانغلاد للعبقريّ وضحك الصبية من السعادة.

– بارع! صرخ كلوفيس. كما لو أنّه خيال.

– هذا الرجل مجنون! أرعد ليوبولد.

– كانت أوبرا جميلة، قال أورليان وهو يندفع في عناق صديقه.

نظر إليه المهندس، وفي عينيه حنان لا نهائيّ.

– بلى، كان عظيماً. منذ زمن طويل لم أسمع موسيقى بهذه الروعة!

انتشرت إشاعة في كل بروفانس، أنّ الرجلان قد صنعا ثروةً بفضل العسل.

- ومن هما؟ كان يُسأل.

- نحّال ومهندس. ألا تعرفون، هما اللذان عادا مؤخراً من إفريقيا.

- آه بلى، كان الجواب يأتي: الحالم وغريب الأطوار!

لزم الأمر شهرين تماماً ليعبر إيبوليت لوازول من صفة غريب الأطوار إلى صفة أقلّ حسداً، متعلقةً بالمختل. وكي يعبر أورليان روشفير أيضاً، من صفة الحالم إلى صفة الطائش.

شهران. الوقت الذي لزم زهور الخزامى لتتفتّح، وتزهر تحت الشمس ثمّ تذبل دون أن تُلقّح أبداً.

شهران. الوقت الذي لزم لرؤية المشروع الخرافيّ لأبيبوليس، المدينة الحقيقيّة المنذورة لعبادة النحل، تتحوّل إلى ساحة بائسة من الدمار، وإلى كارثة لا يمكن لها أن تنبت إلّا في رأسين غير سويّين لاثنين من المجانين.

شهران. الوقت اللازم لدودة الشمع، الطفيليّة الصغيرة القاسية والتي لا تشبع، لتحطّم مشروع حياتهما.

Galleria Cerella، تدعى دودة الشمع، هي فراشة تتغذّى على الشمع. تضع الأنثى بيوضها الصفراء الصغيرة، وبعد ثمانية أيّام، تتحوّل إلى دودة الشمع، وبعد ثلاثة أسابيع، تصبح شرنقة. وبعد خمسة عشرة يوماً تصبح فراشةً. ويتكرّر حدوث ذلك خمسة أو ستّة أجيال.

لا تهاجم فراشة الشمع الرفوف فقط، وإنّما أيضاً تدمر الأطر ومبنى قفير النحل.

في صباح من شهر تموز، حينما أراد أورليان وإيبوليت تفحّص القفران، بهدف القطاف الثاني، اكتشفا في ثلاثة منها، عوضاً عن النحل، آلافاً من اليرقات الميتة.

– العثّ! صرخ أورليان.

– توقّعت ذلك. لا تقلق.

حاول المهندس عِزل خلايا النحل المريضة عن التي لا تزال سليمةً. لكنّ الإصابة المخفيّة، كانت هناك، تنتشر بسرعة مدوّخة.

بعد أسبوع، بلغ عدد خلايا النحل المصابة سبعاً. بعد ثمانية أيّامٍ، صار العدد أكثر من عشرين. وعند نهاية الشهرين، لم يبق في كلّ أبيبوليس قفير نحل واحد معافىً من المرض.

حَسَبَ إيبوليت لوازول حساب كل شيء في كتابه الذي كان ينبغي له أن يحقّق إحدى أجمل التحف الإنسانيّة، لقد حسب حساب كل شيء. إلّا القدر. والقدر لم يكن يريده أن يصبح عبقريّاً.

حين فهم الرجلان أنّهما خسرا كل شيء، حاولا جني الموسم، العسل القليل الذي كان يمكن إنقاذه من الكارثة.

بقي منه بعد تصفيته بجهد مئة كيلو. مئة عبوة زجاجيّة، عليها لصاقة:

عسل الخزامى

أبيبوليس

لانغلاد

النحّال، أورليان روشفير

باع منها أورليان تسعين عبوة، ووزّع سبعاً لمن حوله، وأعطى اثنتين لإيبوليت، واحتفظ بواحدة فقط لنفسه، لم يمسّها أبداً.

عندما أعلن الرجلان عن إفلاسهما، وصل الدائنون فجأةً كالذباب

المنجذب للعسل. وعلى قدر ما كان المبلغ الذي طلبوه كبيراً شعر إيبوليت بدوار في رأسه لدرجة أنّه نسي أن يسحب من سيجاره الأبديّ.

– حسناً وبكم ندين لأولئك الطفيليين؟ سأل لوازول شريكه.

أجرى أورليان حساباته، وسجّل المبلغ على ورقة وقدّمها لإيبوليت.

– كلّ هذا؟

أومأ النحّال بالإيجاب.

– على هذه الحال، لم يبق أمامنا إلا الأمل بأن تمطر السماء ذهباً.

جلس إيبوليت لوازول، خائب الأمل، قرب قفير نحل وانتظر أن يأتي ملاك لينقذه من هذه الورطة.

– السماء، لست متأكداً، لكن أفريقيا، بلى! صرخ أورليان. وسحب من جيبه واحدةً من النحلتين الذهبيتين اللتين يملكهما.

بعد أن بيعت الجوهرة، استطاع الرجلان أن يسدّدا جزءاً من دين أبيبوليس، وطالبا بالتمديد لأجل بقيّة المبلغ، وأعادا الدائنين إلى بيوتهم. وبالسبعة والسبعين فرنكاً التي بقيت ذهبا إلى كلوفيس وثملا الليل بمعظمه.



الفصل الثالث

غادر إيبوليت لوازول لانغلاد في صباح أحد أيام أيلول سنة ١٨٩٤. لم يعد يدخّن السيجار، إلّا أنّه لا يزال يضع قبّعة القشّ الأنيقة على رأسه، كان في قلبه حزن عميق وعيناه مغشّيتان بالأسى.

– سأكتب كتاباً آخر، وهذه المرّة، لن أنسى ديدان الشمع. وعلى فكرة أنوي أن أعدّ قائمةً شاملةً بأمراض الحضانة والنحل لدراستها بشكل أفضل وإيجاد طريقة علاجها.

– لا يهم، حتى إذا لم تكتب هذا الكتاب، قال أورليان. أبيبوليس، كانت فكرةً جميلةً.

– بلى، كانت جميلة، قال إيبوليت.

– وحتّى إذا كان من المستحيل أن تحلم الحلم ذاته مرّتين، سوف أظلّ أتذكّر حلمنا. إلى الأبد.

اضطرب لوازول هذه المرّة. شدّ على يد أورليان طويلاً، ثمّ استدار ورحل دون كلمة.

مات ليوبولد روشفير في صباح من ربيع ١٨٩٥.

شيّد له أورليان شاهدة قبر من رخام معرّق بالأزرق. ووضع في نعشه خصلة خزامى. واتّخذ عادة أن يفكّر فيه كلّ يوم، لكنّه لم يرجع يوماً إلى مقبرة لانغلاد. زيادةً على أنّ ليوبولد لم يكن موجوداً في مستطيل الصلبان الرماديّة أكثر من تواجده في الزرقة البنفسجيّة لأزهار الحقول.

كانت سنة ١٨٩٥ موسماً سيّئاً لقطاف الخزامى. كان الجفاف مرعباً، وذبلت الزهور في الحقول، واحدةً تلو أخرى.

قرّر أورليان أن يوقف استثماره الزراعي وباع جزءاً من الأراضي. كان ينسحب تدريجيّاً أكثر فأكثر إلى بيت المزرعة ليفكّر في أفريقيا.

حلم في ليلة، بالفتاة ذات البشرة الذهبيّة، بماكونين، وصحبة سفره. وحين استيقظ أدرك أنّ لا شيء ولا أحد يمكن أن يُنسى أبداً. وبالذات من أحبهم. والذين شكّلوا، بصمت، رفعة حياته.

لاسيما جدّه. وليس أقلّ منه إيبوليت لوازول، الأكثر جنوناً بينهم، ونبلاً.

– وأبيبوليس؟ ماذا ستفعل بها؟ سأله مرّة كلوفيس. سيمضي نحو عام عليها، وقفرانها آخذة بالتلف من الشمس والرطوبة.

نظر أورليان لأطلال مشروع المهندس وقال بحزن كبير ، دون أن يشدّد على الكلمات:

– سأتركها هنا وأراقبها وهي تموت.

غير أنّه في الواقع، كان يدرك جيّداً أنّ جمال الفكرة لن يموت أبداً.

في الشتاء، وجدت بولين طرداً غريباً أمام بابها. بلا رسالة مرفقة، أو عنوان للمرسل. إضافةً إلى أنّ لا طوابع ملصقةً عليه.

أخذت العلبة باستغراب كبير وأغلقت باب غرفتها. بعد بضع لحظات بدت غير نهائيّة، فتحت الطرد بأصابع محمومة. فوجدت في داخله لوحةً لها جماليّة مدهشة.

كانت بورتريه لامرأة من أفريقيا ذات بشرة ذهبيّة.

في ذات اليوم، فكرت بأورليان، وبقوة الأشياء بدأت تفتقده بشدّة. في الليل كان نومها قلقاً، نعاسها لخفّته بدا غائباً.

في الصباح، أرادت أن تكتب له رسالة، لكن الكلمات لم تطاوعها. كانت الكلمات غير مرئيّة، غير ملموسة. أو أنّها بطريقة ما، كانت هي أيضا غائبة بالكامل.

بالمحصّلة، فعلت ما اعتبرته في اللحظة ذاتها جنوناً، والذي ظهر فيما بعد أنّه جنون ضروري ومفرح: إذ خرجت تحت الثلج وركضت إلى بيت مزرعة آل روشفير.

كان أورليان ينهي عمل قفير النحل السابع حين وصلت بولين إلى مشغله. قرّر بإرادة غير عاديّة وعناد لا مثيل له، أن يبدأ كلّ شيء من جديد، والاستثمار في تربية النحل، ولكن بتواضع هذه المرّة. لم يكن يعلم إن كان سينجح، إن كان سيستطيع حماية نفسه من النار، من دودة الشمع أو أيّ وباء آخر، ولكن بالضبط عدم اليقين هذا، هو ما كان يعطيه الأمل، ويجعل لمبادرته قيمة الذّهب.

بطريقة غريبة، صنّع قفران نحل من الخشب. كانت هذه المرّة الأولى. و لم تكن تشبه شيئاً معروفاً. إلّا أنّ النحّال لم يكن ليَغُصّ بحماقة إضافيّة.

وفيما كان يطلي الخليّة السابعة بالأصفر الذهبي، دخلت بولين واقتربت منه.

حدجت أورليان بنظرها، تقدّمت بصمت، وقالت، وهي تنزع قفازاتها:

– لم تكتب لي طوال السنوات التي أمضيتها في أفريقيا، وحتى حين رجعت، لم تكلّمني بالفعل. لم تكن ترى غير النحل. والآن، ترسل لي لوحةً. دون أن ترفقها بكلمة.

– ربّما فات الأوان لأكتب لك أو أقول أيّ شيء...

دنت منه، ووضعت يدها على وجهه، قالت وهي ترغمه على النظر في عينيها:

- لا شيء يفوت أوانه أبداً.

أخذها أورليان من يدها، وبرقّة شدّها إليه للحظات طويلة.

تمكّنت بولين الإفلات من هذا العناق المتأخّر جداً، ومضت إلى الجهة الأخرى من الغرفة، وببطء مدهش أيضاً، اقتربت من خمسة أشياء موضوعة على الرفّ.

– هذا كل ما تبقّى لي، قال أورليان. عبوة عسل، نحلة ذهبيّة، دفتر أشعار، كتاب عن أفريقيا، وخصلة الخزامى.

التفتت إليه، بابتسامة لعوب، وأجابته:

– لكنّ هذا كثير. أنا لم يبقَ لي منك، غير اللوحة التي أهديتها لي.

لمست بولين خصلة الخزامى، وألقت نظرةً مستخفّةً إلى الجوهرة، فتحت صفحةً لا على التعيين من دفتر الأشعار وقرأت قصيدةً، ثمّ أخذت عبوة العسل بيدها وفتحتها، وضعت إصبعها في السائل الحلو وذاقته بلذّة حقيقيّة.

– ربّما قطاف هذا العسل، أفضل ما فعلته في حياتك.

غمست إصبعها مرّة أخرى في العسل، وببطء ومتعة، وضعتها على شفتيها. وبنعومة أضافت هاتين الكلمتين:

– ذهب الحياة.

وضع أورليان فرشاته على طاولة المشغل. ثم أخذ الكتاب الذي يحكي عن أفريقيا وقدّمه لها.

– خذي، هذا الكتاب لك. وكلّ ما بقي أيضاً، وكلّ ما هو معه. العسل، النحلة الذهبيّة، دفتر الأشعار، وخصلة الخزامى. كل ما تبقّى مني و لم أعرف أن أعطيه لك من قبل.

– لي أنا؟ متأكد؟

رفع بصره إليها وعندئذ رأى هذا الشيء الغريب، هذا الشيء الذي لم يره من قبل والذي جعله يضطرب بعمق: بولين جالسة على طرف الطاولة تنظر بحبّ إلى قطرة العسل التي تسيل على طول العبوة الزجاجيّة. كانت ترى أبعد من نظرتها، وفي مرآة عينيها، على بشرتها، على يدها ينعكس لون العسل.أدرك أورليان أنّه كان أمام المرأة التي يبحث عنها. فأجاب ببساطة:

– الآن، بلى.

وشعر بالسعادة، إذ وجد أخيراً ذهب الحياة الذي يخصّه.

الفهرست



ولد (ماكسنس فرمين في ألبيرفيل ١٩٦٨. وبعد إقامته في باريس وتونس- حيث عمل في مكتب للدراسات- يقيم الآن في أوت سافوا. من رواياته الثلج التي نشرت بالعربية في دار المدى، والنحّال (نال عليها جائزة ديل دوكا، وجائزة مورات عام ٢٠٠١)، والأفيون، وأيضاً أمازون (التي نالت جائزة أوروبا ١ عام ٢٠٠٤)، ترجمت رواياته إلى عدّة لغات، ومنها الإيطالية والعربية، حيث حظيت بنجاح كبير.، وهو في كل رواياته المكثفة يقدم شخصيات حية تطمح إلى اكتشاف وجوه الحياة والجمال والمغامرة ومطاردة الأحلام بمتعة وخيال حر وصولاً إلى الذروة.


ISBN 978-2-843090-43-1
9 782843 090431